الإسلام والعصر الحديث

وحيد الدين خان

مجموعة مقالات

ترجمة: ظفر الإسلام خان

الطبعة الأولى 1976 م

الطبعة الثانية 1978 م

مقدمة الطبعة الثانية:

ترجمت محتويات هذا الكتاب للنشر في صورة كتيبات, ولكن, لأسباب خارجة عن الإرادة, ظهر الكتاب على هيئته الحالية, وقد روجعت مواد الكتاب وأضيف إليه ما سقط منه في طبعته الأولى, وخصوصا موضوع (الإيمان والحركة الإيمانية) الذي ظهر مبتورا في الطبعة الأولى بسبب حذف الرقيب أجزاء هامة منه, كما أضيف إلى الطبعة الجديدة (تحدي العصر الحديث) الذي يضع التحديات الفكرية التي نواجهها نحن معشر المسلمين في إطارها الصحيح ويثير قضايا متعددة لا تزال في حاجة إلى الاستجابة لها وفق مفاهيم العصر.

المترجم

تحدي العصر الحديث:

إن الإسلام يواجه تحديا في العصر الحديث. ويتلخص هذا التحدي في ادعاء العصر الحديث بأن الإسلام قد فقد مبررات بقائه, ليس من الناحية العملية وحدها, بل أن النهضة العلمية أيضا قد أبطلت أسس الإسلام.. ولذلك يدعي المتحدثون باسم العصر الحديث بأن الإسلام يتمتع الآن بقيمة تقليدية وتاريخية بدلا من أن يتمتع بقيمة حقيقية وعملية.

إن التحديات – العلمية أو الفكرية — التي كان الإسلام يواجهها قبل القرن العشرين كانت كلها تتعلق بمجال التاريخ. فكانت القوى المعادية للإسلام تلجأ إلى تحريف حقائق التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية لتؤكد أن الإسلام يقوم بدون أساس. وفي ذلك الوقت انبرى علماء من أمثال شبلي النعماني وقدموا صورة تاريخية واضحة للإسلام.

وقد تغير مجال التحدي في القرن العشرين. إن التحدي الذي يواجهه الإسلام الآن ليس في مجال التاريخ بل هو في مجال الفكر والفلسفة. (وعلى سبيل المثال: فقد كان أعداء الإسلام يعمدون إلى تشويه سيرة الرسول ﷺ — في الماضي– أما اليوم فيدعون أنه لا أساس للوحي السماوي).

ومما زاد من خطورة هذا التحدي أن الفكر الحديث يمثل الحضارة المادية الحديثة التي سادت فكر العالم أجمع. إن مجموعة من أذكى العقول المفكرة قد أعدت مكتبة ضخمة لتوطيد الفكر الحديث. وكانت النتيجة أن تسربت آثار الفكر الحديث إلى جميع فروع العلوم الحديثة, فلا يدرس المرء علما من علومها إلا وهو يتشرب مبادئ الفكر الحديث. وقد نشأ هذا الوضع لأول مرة في العصر الحديث, وقد تضاعفت خطورته الآن بسبب تطبيق هذه الأفكار على العلوم الحديثة. وكانت النتيجة أن المؤمنين بالله والدين — ناهيك عن الملحدين — قد وضعوا الدين في خانة المعتقدات في عقولهم, وهم لا يدرون كيف يمكنهم تبرير عقائدهم علميا وعقليا, وهم — بالرغم من إيمانهم — يعانون من شكوك غاية في الخطورة. ومنهم جماعة أخذت تؤلف تفسيرا جديدا للدين لتطبيقه على مقتضيات الفكر الحديث.

وعلماء الغرب, الذين تطلق عليهم تسمية (المستشرقين), قد تغير أمرهم تماما. إن الاستشراق الجديد يختلف عن الاستشراق القديم. إن الاستشراق القديم كان يمارس مبدأ (الخدعة المقدسة) ضد الديانة المعادية, لحماية المسيحية. ولذلك كان قدامى المستشرقين يشوهون سيرة النبي للتشكيك في تعاليمه. وقد وصف مُحَمَّد أسد أسلوب المستشرقين القدامى بـ(التحريف المتعمد).

ولكن الاستشراق الجديد يقف على أرضية مختلفة, وهي أن الفكر العلمي الحديث يفسر كل الأشياء والظواهر تفسيرا جديدا في ضوء الحقائق والمقاييس الجديدة, ولذلك لا بد من تفسير علمي لظاهرة الأديان. ومقولة جوليان هكسلي التالية تعتبر خلاصة التفسير الجديد لظاهرة الأديان: (إن الدين نتاج التفاعل بين الإنسان وبيئته).

ولذلك حين يدعي أحد المستشرقين (أن تعاليم الإسلام مقتبسة من المسيحية) فهو لا يعبر عن الحقد الديني القديم بل هو يحاول أن يطبق الفكر الحديث على الإسلام. وبما أنه يعتقد أن منبع الدين ليس في السماء, فهو يبحث عن جذوره في تاريخ الأرض. ولذلك, يقول هؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام مقتبس من المسيحية: أن المسيحية خرجت من بطن اليهودية, وأن اليهودية نتاج للأديان السابقة لظهورها.

وفي هذه الأحوال لا بد من إثبات حقية الإسلام بأسلوب جديد. إن الأسلوب القديم, ولو عرض بكلمات جديدة, لن يجدي نفعا في العصر الحدي. وهذا العمل ليس مطلوبا للرد على العقول المعادية فقط, بل إن حاجة المسلمين إليه أشد, لأنهم بالرغم من إيمانهم بالإسلام, مبهورون بأفكار العصر الحديث.. ومعتقداتهم لن تترجم إلى يقين وأفعال لم يثبت لهم, على مستوى فكر العصر الحديث, أن الإسلام هو الحق الكامل اليوم تماما كما كان في الماضي.

ولا شك في أن عديدا من علمائنا قد حاولوا الرد على التحدي العلمي الحديث, ولكنني أجد نفسي مضطرا, مع تقدير خدماتهم, لأن أقول أن جهودهم وقعت في واحد من خطأين:

1- الخطأ الأول هو ما يمكن أن نسميه بالتبرير أو التطبيق.. ومن أمثلة ذلك أن مبدأ تعدد الزوجات شاق جدا على الفكر الحديث, ولذلك يعتبر أصحاب هذه المدرسة زيجات النبي عملا غير حضاري. وقد كتب أمير علي, وهو يتحدث عن تعدد زوجات النبي: (لماذا تزوج موسى بأكثر من واحدة, ولماذا احتفظ داود بزوجات كثيرة؟ إن الرد بسيط, وهو أن لكل عصر معياره الخاص به. ولا يجوز لنا أن نحكم على الماضي بمعيار الحاضر)).[1]

إن هذا المنطق التبريري يضع الدين في المتحف. فالذي يعنيه هذا المنطق هو أن نضع الدين في إحدى دواليب التطور الاجتماعي ويشاهده المهتمون بالتاريخ من وقت إلى آخر. إن هذا المنطق يعطي للدين مكانة في الماضي وليس في الحاضر.

ومن هؤلاء التبريريين من يقول لنا: إن أفكار الغرب ونظرياته ليست باطلة كلية, بل هناك حقائق امتزجت بالباطل. ولذلك ينبغي أن نتبنى الأفكار الصحيحة عملا بالمبدإ القائل (خذ ما صفا ودع ما كدر).

إننا حين ندرس هذا التحليل وأدلته نتأكد من أنه عنوان جديد للتطبيق بين الإسلام والغرب. ولذلك, فإن الأفكار التي يعتبرها هؤلاء باطلة وغير إسلامية هي ذات الأفكار التي تتعرض للنقد في الغرب, أما الأفكار التي لم ينقدها علماء الغرب بعد, فهي أفكار صحيحة وإسلامية في رأي هؤلاء التطبيقيين. وعلى سبيل المثال يرى هؤلاء الناس أن نظرية الارتقاء حقيقة إسلامية تماما كما هي حقيقة علمية في نظر الغرب. إنه ينبغي أن توجد نصوص في القرآن والسنة تؤيد الارتقاء حتى نؤمن به. ولكن الحقيقة هي أن هؤلاء فشلوا حتى الآن في الإتيان بآية أو حديث يؤيد الارتقاء. بل, على العكس من هذا كله, فإن نظرية الارتقاء غريبة تماما على بنيان الفكر الإسلامي ولذلك يضطر المؤمنون بالارتقاء لأن يأتوا بتفسير جديد للإسلام يلائم مبادئ الارتقاء وعقائده, فاضطروا إلى تفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى بطريقة جذرية.

وعلى سبيل المثال, فإن نظرية الارتقاء تقتضي تطور البشرية المستمر نحو الأفضل وأن يحوز الإنسان في النهاية على أفضل مكانة تبوأها في تاريخه. وهذا يقتضي أن تقع الأحوال المكروهة في الماضي وليس في المستقبل, ولذلك يحبذ هذا الفكر الجنة في نهاية الارتقاء البشري ولكنه لا يجد تفسيرا للجحيم. وتحل هذه المعضلة قال هذا الفكر أن الجحيم ليس مكانا للعقوبة, بل هو مكان للتربية. وقد كتب أحد محاميي هذه المدرسة التطبيقية يقول: (إن الحياة تمضي قدما, بصفة دائمة, تكافح العوائق التي تعترضها. والذين جرفتهم عوائق الذنوب الدنيوية فلم

[1] Amir Ali, Spirit of Islam, London, 1955, P.240.

يتقدموا سيواجهون أحوال الجحيم العويصة حتى يستمر نضالهم التطوري. إن هذا النضال التطوري يسمى بالجحيم).

إن هذا الأسلوب للتطبيق بين الإسلام وغير الإسلام هو الأسلوب الذي تنتهجه الحضارات المقهورة إزاء الحضارات القاهرة. ولكنَّ فكرا ما يظهر على العالم بهذه الصورة لن يصبح البنيان الفكري لحضارة ما, بل سيبقى على قيد الحياة طفيليا. وإن كان من أحد يظن أنه يستطيع أن يغير الجو الفكري العالمي بمثل هذه المحاولات التطبيقية أو أنه سيعيد الناس إلى طريق الصواب فهو واهم وحالم.. ما في ذلك من شك.
إن الفكر الثوري هو الذي يغير الأفكار وليس الفكر التطبيقي التلفيقي.

2- والمثال الآنف الذكر للذين حصلوا على قسط من المعارف الحديثة. وقد اتجه هؤلاء, في مواجهة التحدي الحديث إلى التطبيق واختلاق المبررات والأعذار.

ويؤسفني أن أقول إن الليبراليين المسلمين المعاصرين ليسوا هم الذين سقطوا في هذه الهاوية التطبيقية, بل إن أناسا مثل مُحَمَّد إقبال قد انحرفوا إلى هذا التفكير في بعض الأحايين. ومُحَمَّد إقبال –الشاعر الثائر الذي لا يقبل الحلول الوسط في شعره- حين يجلس لوضع التفسير الفلسفي للدين نجده يتجه اتجاه التطبيق. ومن أمثلة ذلك قوله:
(إن الجنة الجحيم حالتان وليستا بموقعين)
(Heaven and Hell are states, not localities).

إن هذا القول يعطي للآخرة تصورا يلائم بنيان الفلسفة الحديثة. وهناك أمثلة عديدة لهذا الاتجاه التطبيقي في خطب مُحَمَّد إقبال.[2]
أما المجموعة الثانية فهي مجموعة علماء الدين. إن عددا من علمائنا تنبهوا إلى واجباتهم. ولكن, إذا كانت المجموعة الأولى تعاني من أخطاء التبرير والتطبيق, فالمجموعة الثانية تعاني من المحافظة التقليدية للماضي. والحقيقة أن هؤلاء لم يفقهوا, بعد, جوهر التحدي الحديث, ولذلك اكتفوا بترديد كلمات قديمة بأساليب جديدة ظانين

[2] نشرت هذه الخطب في كتاب بعنوان (تجديد الفكر الإسلامي) – المترجم.

أنهم قد ردوا على التحدي الحديث.

ويمكن تقسيم المجموعة الثانية إلى نوعين:
النوع الأول من العلماء يجهل المعلومات الجديدة ولا يدري شيئا عن وسائل العلم الحديثة. وهؤلاء لم يدرسوا سوى الكتب القديمة, وهم بالتالي لا يعرفون إلا ردود الأسئلة التي ثارت في الأزمنة الغابرة. وبما أن هؤلاء قد ولدوا في العصر الحديث فهم يسمعون بعض القضايا الحديثة, ويصرون, من باب إظهار الحق, على الإدلاء بآرائهم حول هذه القضايا. وهم يبحثون عن ردود القضايا الحديثة في الكتب القديمة التي درسوها في المدارس الدينية. وكانت النتيجة أن أصبح مثلهم كالطالب الذي يبحث في المعاجم القديمة عن معاني كلمات مستحدثة.

وكنموذج لهذه الحالة, أشير إلى مقال نشره كاتب عربي معروف بعنوان: (الشمس جارية والأرض ثابتة). ولنقرأ القضية ورأيه حولها بكلماته نفسها:
(لقد شاع بين كثير من الكتاب والمؤلفين والمدرسين في هذا العصر أن الأرض تدور والشمس ثابتة. وراج هذا على كثير من الناس وكثر السؤال عنه, فرأيت أن من الواجب أن أكتب في هذا كلمة موجزة ترشد القارئ إلى أدلة بطلان هذا القول ومعرفة الحق في هذه المسألة, فأقول: قد دل القرآن الكريم والأحاديث النبوية وإجماع علماء الإسلام الواقع الشاهد على أن الشمس جارية في فلكها كما سخرها الله سبحانه وتعالى وأن الأرض ثابتة قارة قد بسطها الله لعباده وجعلها لهم فراشا ومهدا وأرساها بالجبال لئلا تميد بهم).

ثم يقول, بعد الاستدلال بعديد من نصوص القرآن والحديث والتفاسير والمعاجم:
(فمن زعم خلاف ذلك, وقال أن الشمس ثابتة لا جارية فقد كذب الله وكذب كتابه.. وكل من قال هذا القول فقد قال كفرا وضلالا لأنه تكذيب لله وتكذيب للقرآن وتكذيب للرسول.. فهو كافر ضال مضل يستتاب فإن تاب, وإلا قتل كافرا مرتدا ويكون ماله فيئا لبيت مال المسلمين كما نص على مثل هذا أهل العلم والإيمان في باب حكم المرتد.. وأما من قال أن الأرض تدور والشمس جارية فقوله أسهل من قول من قال بثبوت الشمس, ولكنه في نفس الأمر خطأ ظاهر مخالف للآيات المتقدمات وللمحسوس والواقع).[3]

[3] جريدة (الرائد), لكناؤ, 1 – 16 يناير 1966.

لا مجال هنا لمناقشة الأدلة التي ساقها هذا الكاتب, ولكن لا بد من القول أن الآيات والأحاديث التي نقلها الكاتب لا تكفي لإثبات وجهة نظره, وإن كانت أقوال بعض القدماء تؤيده ولكنها ليست أدلة لأنها لا تعدو أن تكون صدى لعلم الفلك السائد في عصور أولئك القدماء, ولا علاقة لأقوالهم بالقرآن والسنة. ومن المدهش جهل هذا الكاتب واعتقاده أن النظرية الحديثة تقول بأن الشمس ثابتة وأن الأرض تدور حولها, فلعله يرى بوجوب (ثبات) واحدة من الاثنتين: الشمس أو الأرض!!

والنوع الآخر من العلماء لا يعاني من هذا الجمود. ولكن قصارى ما قام به هؤلاء العلماء هو ترديد عبارات قديمة ردا على التحدي الحديث, مع بعض التغيير في أسلوب الأداء. واقتصر عملهم على تقديم شيء قديم في محتوى جديد.

ومن أمثلة ما قام به هذا النوع من العلماء مقال (حكم العقل) لمؤلف معروف. ويدل عنوان المقال على أنه قد ألف لطمأنة العقول التي تفكر في ضوء العقل وتحكم على أساسه. ولكن العقل الحديث لن يقرأ هذا المقال إلا ليقول أن الأحرى بهذا المقال أن يحمل عنوان (حكم العقيدة) وليس (حكم العقل). إن الكاتب قد ألف معتقداته ثم وضع عليها عنوان العقل, بينما كان العنوان يقتضي أن يثبت رأيه بمقاييس العقل الخالصة الحديثة. وقد حاول المؤلف في مقاله هذا أن يقيم الدليل العقلي على معقولية الإسلام. وخلاصة هذا الدليل العقلي أن هناك نظريتين لتفسير الظواهر الكونية, إحداهما هي نظرية الملحدين, والأخرى هي التي جاء بها الرسل والأنبياء. والملحدون يعانون من خلافات فكرية شديدة فيما بينهم بينما فكر الرسل واحد بدون اختلاف. فكل الأنبياء الذين تجاوز عددهم الآلاف قالوا لشعوبهم أنهم جاؤوا بعلمهم من منبع معين أخبرهم بأسرار الكون. فهنا مكذبون مختلفون فيما بينهم ومدعون متفقون في أقوالهم. ويعرض المؤلف أمر الطرفين على (محكمة العقل السليم). ويحكم (العقل السليم) بأن دعوى المدعين سليمة لأن آلافا من العقلاء الصادقين النزهاء قد أيدوا هذه الدعوى باتفاق متواتر وإيمان عميق ما لم تحظ به أية نظرية أخرى. ولاحظ (العقل السليم) أنه لا يمكن لعدد كبير من الناس, ولدوا وعاشوا في أزمنة وأمكنة مختلفة, أن يتفقوا على شيء واحد إلا إذا كان مصدر علمهم هو الوحي الإلهي. وهكذا أثبت العقل حقية الدين والوحي!

إن كان لهذا الدليل من معنى فهو في ضوء المنطق القديم الذي رفضه العقل الحديث, ولا معنى له في ضوء المنطق الحديث. كان المنطق القديم يقوم على المسلمات القياسية, بينما يبحث المنطق الحديث عما إذا كانت المسلمة – المطلوب إقامة الدليل عليها – صحيحة أم لا.

إن الاستدلال السالف الذكر يقوم على أساسين, وهما أن الرسل كانوا ذوي سيرة عالية نموذجية وأنهم اتفقوا على مبادئ واحدة بالرغم من مجيئهم في أزمنة وأمكنة مختلفة متباعدة. ولكن المنطق الحديث يبادر قائلا: إنك قد أهملت الأساس الثالث, أو الأساس الأول في حقيقته, وهو: كيف عرفت أن أناسا من هذا النوع قد ولدوا وعاشوا بالفعل, فهم يمتون إلى الماضي البعيد الذي لا يوجد له تاريخ موثوق به. إنه يمكن قبول هذه المسلمة, في رأي المنطق الحديث, حين يثبت وجود هذه الشخصيات من خلال وثائق وسجلات موثوق بها كأن تتأكد من أسمائهم ولغاتهم وأماكن ميلادهم وأحوال سيرهم, إلخ..
إن التاريخ المعروف لا يعطينا هذه المعلومات. فباستثناء رسول واحد, هو آخر الأنبياء, لا يدلنا التاريخ على تواريخ ميلاد ووفاة أي نبي من الأنبياء السابقين, ناهيك عن أن يعطينا تفاصيل كاملة عن حياة أي منهم.
وتوجد, إلى جانب مصادر التاريخ, الكتب الدينية التي تتحدث عن الرسل والأنبياء, ولكن هذه الكتب تناقض نفسها ورواياتها لا تقدم تصورا واضحا واحدا حول أي شخصية من هذه الشخصيات. وهكذا, فبالاعتماد على الكتب الدينية القديمة وحدها لا يمكن إثبات أن الرسل والأنبياء قد جاءوا برسالة واحدة في كل العصور وأنهم كانوا يمتازون بسيرة ممتازة.. هذا فيما يتعلق بمعايير المنطق الحديث.

ولا يبقى بعد هذا سوى القرآن الموثوق به من الناحية التاريخية. والقرآن يذكر نحو رزينتين من الأنبياء بأسمائهم ويذكر آخرين بدون تسميتهم. والأنبياء المذكورون بالأسماء قد ظهروا في منطقة جغرافية معينة, أما الآخرون فظهروا في مناطق أخرى, على وجه القياس. وكانت رسالتهم وسيرتهم متطابقة في ضوء القرآن, بدون شك.
ولكن القرآن, في نظر المنطق الحديث, هو كتاب أحد الأطراف. ولذلك فإن الاستدلال ببيان القرآن عن الأنبياء يعتبر دعوى تحتاج إلى أدلة. ولهذا يقول المنطق الحديث أن بيان القرآن الإجمالي عن الأنبياء لا يقبل كحقيقة تاريخية, وهو بالتالي لا يكفي دليلا لإصدار حكم عقلي بموجبه, فحكم العقل هو الحكم الذي تمليه وتقبل به

كل العقول البشرية. أما هذا الحكم فلا يقبل به إلا الذين يؤمنون بالقرآن مسبقا, أي أن هذا الاستدلال عقيدي وهو ليس باستدلال عقلي.

وهذا التوضيح لموقفنا من الفكر والمنطق الحديثين يبين لنا أن المطلوب منا ليس ما كنا نقوم به لمواجهة التحديات الفكرية الحديثة, التي تتطلب معالجة جديدة لتؤثر في أجيالنا الجديدة وفي الآخرين الذين تقع على عواتقنا مسؤولية إبلاغ رسالة الحق إليهم.

إن الفتن الفكرية الحديثة التي قامت بيننا بتأثير الحضارة الغربية وأساليب مواجهتها تؤكد أيضا على فشلنا في معالجتها واحتوائها. فهناك مجموعة من العلماء والمشايخ الذين لا يعرفون ردا على هذه الفتن الفكرية سوى إصدار الفتاوى والخطب والبيانات الغاضبة. وقد أصاب أحد المؤلفين حين وصف هذا الأسلوب لمواجهة التحديات العصرية بأنه أسلوب (المفارقة التاريخية)[4]. فمن الواضح أن هذه الفتن قد قامت نتيجة الحرية الفكرية السائدة, ولا يمكن الرد عليها بدون أخذ الحرية الفكرية في الاعتبار.

وهناك طائفة أخرى, بدون شك, حاولت معالجة الفتن الحديثة بالاستدلال والتحليل. ولكن جهودها تدل على عدم فهم الفتن الفكرية بعمق, فاستخدمت هذه الجهود كلمات وعبارات تقليدية وظنت أنها قامت بالمطلوب ووفت القضايا حقها من الرد. وهناك قضايا حديثة ألف مؤلفونا مئات الألوف من الصفحات حولها, وظلت دوائر إسلامية متعددة تعتقد أن الأمة قد قامت بتأدية (فرض الكفاية) تجاه هذه القضايا, إلا أن الحقيقة المرة هي أن هذه القضايا لا تزال في حاجة إلى الرد الصحيح.

وأذكر قضية (القاديانية) على سبيل المثال. إن كثيرين يعتقدون أنهم قد ردوا على القاديانية ودحضوها حين يثبتون أنها تعني نفي ختم النبوة. لكن الرد العلمي لا يقتضي منا فقط أن نثبت أن القاديانية تعني نفيا لأساس جوهري من أسس العقيدة الإسلامية, بل المطلوب هو أن نرد على الفكر الذي تقوم عليه القاديانية. إنه لا بد من تحليل هذا الفكر والرد عليه لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

---

[4] Anachronism.

إن نفي ختم النبوة ليس قضية القاديانية الأساسية, بل هو نتيجة طبيعية لفكر القاديانية. إن القاديانية محاولة للرد على السؤال الذي يثار حول صلاحية النبوة والشريعة التي مرت عليها أربعة عشر قرنا. وردت القاديانية على هذا السؤال بأن آخر الأنبياء سيظهر مرة أخرى في الأزمنة الحديثة ظهورا روحانيا ليهدي الناس في الظروف المتغيرة.

وأنقل هنا بعض ما كتبه أحد أهل رجال الحركة القاديانية, وهو ظفر الله خان[5]. إنه يقول في الباب الثامن من كتابه (الإسلام: معناه للإنسان الحديث) : إن القرآن قد نزل في زمن يختلف كثيرا عن العصر الحديث.

.... (إن جميع أبعاد الحياة الإنسانية قد تغيرت ولذلك يشعر جميع أهل العلم والفكر بضرورة وحي جديد.. إنه يمكن السؤال: ما الذي يقترحه القرآن لمعالجة هذا الوضع الذي يعانيه الإنسان الآن والذي سيتضخم على مر الزمن. إن القرآن يعالج هذا الوضع قائلا إن النبي لم يبعث لهذا الجيل فقط (الجمعة: 3 – 4). وهذا يعني ظهورا روحانيا ثانيا للنبي في هذا العصر الحديث لمواصلة واستمرار الهداية القرآنية ولتفسير القيم طبقا للأوضاع التي يواجهها الإنسان. وبظهور غلام أحمد القادياني (1836 – 1908) قد تحقق هذا الوعد)[6].

إنه من الواضح أن هذه عقيدة باطلة وعابثة. فآيتا سورة الجمعة اللتين يشير إليهما المؤلف لا تدلان على هذا الاستدلال إلا لأنهما ترجمتا إلى الانجليزية بصورة خاطئة. ولكن المؤسف أننا لم نحلل بعد المشكل الفكري الذي ساق المؤلف إلى اختراع هذا الدليل ليقنع نفسه بصحة ما يؤمن به. وكانت النتيجة, أنه بالرغم من تأليف (كتب حاسمة) حول القضية القاديانية, لا يزال المشكل الفكري الذي أنتج القاديانية بدون رد مفحم وحاسم.
وهذا ما حدث بالنسبة (للبرويزية)[7], فكثيرون من الناس يطمئنون إلى أنهم قد أنهوا القضية البرويزية حين يثبتون أنها ليست إلا محاولة لرفضه الحديث النبوي. ولكن الإنسان الذي يدرك الفكر العصري يعرف أن رفضه الحديث نتيجة من نتائج الفكر الذي تقوم عليه البرويزية. فالبرويزية ليست مجرد رفض الحديث بل هي تقوم على النظرية التي تقول بأن السنة تفسير زمني للدين وهي ليست بتفسير دائم للدين. وأصحاب هذه النظرية يفسرون السنة

---

[5] وزير خارجية باكستان سابقا – المترجم.

[6] Zafrullah Khan Islam: Its meaning for Modern Man, P. 90.

[7] (البرويزية) نسبة إلى الكاتب الباكستاني (غلام أحمد برويز) صاحب مجلة (طلوع الإسلام), الذي ينكر الحديث ليتمكن من تفسير القرآن على هواه – المترجم.

على هذا النحو ليتمكنوا من مطابقة الدين بالأفكار الحديثة عن التطور الاجتماعي. وأستطيع أن أقول, بمنتهى الاطمئنان, أن أحدا لم يرد بعد على قضية البرويزية الأساسية, على المستوى العلمي. إنه لا يمكن الرد على البرويزية إلا على الصعيد الذي نبتت عليه. ولذلك, لا تزال البرويزية, بالرغم من (الردود الحاسمة والمحطمة), مستفحلة ولا يزال تحديها الفكري قائما في انتظار دحضها والرد عليها على مستوى الفكر الحديث.

إن هذه القضايا التي أثرتها تدل على أننا لم نستوعب ولم نفهم بعد التحدي الحديث على المستوى الفكري, ناهيك عن التقدم بالرد العلمي عليه. هذا بالرغم من أن هذا العمل يعتبر من الأولويات الأساسية التي لا نستطيع بدونها أن ندعي, بالفخر والاعتزاز, الانتماء إلى العصر الحديث. إن عقيدتنا ونظامنا لن يجدا لهما مكانهما المناسب على خريطة العصر الحديث إلا بقيامنا بهذا الواجب. وغني عن البيان أن جهود الدعوة والإصلاح لن تفلح إلا بعد أداء هذا الواجب.

إن البعض يرون حركات مختلفة تستمر بين المسلمين منذ عشرات السنين وتستقطب عددا من الناس, وهم لذلك يعتقدون أن هذه الحركة أو تلك قائمة على أسس ناجحة وأنها تفي بمقتضيات العصر الحديث أو أنها قادرة على الوفاء بها. ولكن من باب الصدفة فقط أننا نجد معظم هذه الحركات في القرن العشرين, ولا يؤكد مجرد وجودها أنها تفي بمقتضيات القرن العشرين. إن كل المجتمعات تضم أناسا من مستويات وشواكل فكرية متعددة ولذلك تستطب أية حركة تقوم في أي عصر بعض الناس, بينما هذا الاستقطاب في ذاته لا يدل على أن مثل هذه الحركة تستجيب حقا لمقتضيات عصرها الذي توجد فيه.



الثـــــورة الفـــكرية قـــبل الثـــورة التشـــــــــريعية

يطالب بعض الغيورين بتطبيق الشريعة الإسلامية فورا بواسطة القوة, دون مراعاة لاستعداد المجتمع لتقبلها. إنه لا شك في إخلاص هؤلاء ولا في صحة أهدافهم. ولكن الإسلام حين يعلمنا الأحكام الشرعية, يؤكد أيضا على الحكمة. فإن التنفيذ التدريجي للأحكام مبدأ دائم في الإسلام. وعلى سبيل المثال فإنه لم ينزل في أول أمر الدعوة الإسلامية أي حكم في القرآن الكريم حول الخمر, بل قيل فقط إن ضررها أكثر من نفعها, ثم جاء الحكم بعدم التوجه إلى الصلاة في حالة السكر, وفي النهاية نزل حكم التحريم الكامل القاطع.

لقد كانت هذه القضية تتلخص في مراعاة طبيعة الفطرة البشرية. ولكن هناك اليوم عقبة أكبر في وجه تنفيذ التعاليم الإسلامية وهذه العقبة هي الحضارة المادية الحديثة التي تسلحت بالطاقات العقلية والعملية وغزت العالم كله, وأثرت في عقول البشر بعمل متواصل منذ قرنين من الزمن. وفي مثل هذا الجو, لا يمكن البدء بتنفيذ الأحكام الإسلامية عن طريق المحاكم, والواجب أولا هو خلق جو فكري ملائم.. إنه يجب علينا أن ننهض بثورة فكرية حديثة ولا يمكن للبرلمانات والمحاكم أن تعمل بفاعلية إلا بعد أن تكون القلوب مستعدة لذلك. ويبدو لي أن العمل الحقيقي المطلوب الآن هو أن ننشئ مركزا إسلاميا على مستوى عظيم مزودا بوسائل الإعلام الحديثة من صحافة وإذاعة وطباعة. وسيستخدم هذا المركز كل القوة الكامنة في اللسان والقلم لنقش عظمة الإسلام في قلوب الجيل الإسلامي الحاضر حتى ينتهي انبهاره بالحضارة الغربية, وبدلا من تقليدها الأعمى يبدأ هذا الجيل بالنظر إليها على أنها هي المحتاجة لرسالة الإسلام. ومن ناحية أخرى سيبلغ المركز رسالة الإسلام وجوهره لشعوب العالم الأخرى بخلق جو عالمي تمهيدا لتنفيذ الأحكام الإسلامية. ويجب ألا يكون هذا بلغة الدعاية وأسلوبها, بل باللغة العلمية حسب مقتضيات العصر.

وليس من الضروري أن ننهي هذا العمل خلال فترة محددة مسبقا. ولكنه إذا بدأ العمل في هذا الاتجاه, فإنه سيكون اللبنة الأولى نحو ثورة حقيقية. ولكن على العكس من هذا, لو بدأ حاكم ما ينفذ الأحكام الإسلامية ابتداء من المرحلة الأولى وبدون خلق الجو المناسب لذلك, فإنه سيرحل عن هذا العالم بعد إنفاق كثير من الجهد والمال, دون أن يكون قد أنشأ السلم الأساسي الذي سيرتقيه جيلنا القادم. بل أخاف أن يظهر رد الفعل في الشعب عقب التحرر من قيادته السياسية فرمي بالإسلام بعيدا ويسبق إيران وتركيا في التحرر المزعوم.

إن الإقدام في الجهة الصحيحة يعني أن كل قدم يخطوه الإنسان هو بمثابة تقدم إلى الهدف, أما إذا كان الإقدام قهقريا, فإن الإنسان يجد بعد بذل كثير من الجهد أنه عاد إلى حيث كان قبل مسيرته, إن لم يكن قد تجاوز مرحلته القديمة نفسها. إن العمل الفاشل لا يتسبب فقط في ضياع القوة والوسائل ولكنه يصيب المرء بنفسية فاشلة, تسلب منه الحماس الداخلي الذي كان قد حركه نحو العمل في أول الأمر.

إنها حقيقة أن تنفيذ الأحكام الإسلامية لن يتسنى في الظروف الحالية عن طريق المحاكم والبرلمانات, بل يجب خلق مكتبة إسلامية رفيعة تخلق في الجيل المسلم الجديد الاستعداد النفسي لتقبل الإسلام, وفي الوقت نفسه تخلق جوا عاما لتنفيذ الأحكام الإسلامية عن طريق نشر رسالة الإسلام على المستوى العالمي حتى يصبح النظام الإسلامي والحكومة الإسلامية من الأمور المفهومة للناس, تماما كما فعل الذين نشروا الأفكار الاشتراكية بقوة ونشاط في العالم الرأسمالي وصولا إلى جعلها أفكارا مقبولة ومفهومة. إن من الحتم أن نقوم بثورة فكرية قبل أن نقوم بثورة تشريعية. وإذا حاولنا القيام بالثورة التشريعية دون الثورة الفكرية فإن النتيجة لن تكون إلا الفشل في النهاية. لقد أنزل الله تعالى آية (عَلَّمَ بالقَلَمِ) قبل تشريع الأحكام. فكيف لنا أن نغير هذا الترتيب اليوم, بأن ننفذ الأحكام قبل تعليم الناس, مع أن تعقيدات جديدة يجب اجتيازها قد نشأت بشأن تنفيذ الأحكام الإسلامية اليوم.

إن قيام الحكومة الإسلامية وتنفيذ أحكام الشريعة واقع اجتماعي. ومثل هذه الوقائع الاجتماعية لا تتحقق بمحض الإرادة الفردية لشخص ما كما لا يمكن لإرادة فردية أن تحول دونها.

وقد كانت هذه حقيقة هامة في العصر القديم, أما في العصر الحاضر فقد تضاعفت أهميتها آلاف المرات لأن الحضارة الحديثة قد حطمت التقاليد القديمة وأوجدت عالما جديدا للعلم والعمل فرق أنقاض الدين.

وهذا ليس كلاما قياسيا, بل هناك أمثلة كثيرة له في دنيا الحقائق. ففي الهند استولى الشيخ سيد أحمد الشهيد البريلوي (1786 – 1831) على إقليم الحدود وأقام فيها حكومة شرعية. ولكن رؤساء القبائل الذين ساعدوه في إقامة هذه الحكومة ثاروا وقضوا على حكومته خلال شهور. وليس السبب فيما حدث خطة شريرة لأعداء الإسلام, كما نحب أن نعزو كل فشلنا, بل السبب البسيط هو أن الشيخ سيد أحمد كان قد حول رجال القبائل إلى مريديه وأتباعه, ولكنه لم يفجر فيهم ثورة فكرية لتهيئتهم لقبول حكومة إسلامية على أنقاض تقاليدهم

القبلية.

والجماعة الإسلامية اقترفت هذا الخطأ في باكستان. لقد ظنت أن العقبة في وجه إنشاء النظام الإسلامي ليست إلا حكومة المشير أيوب خان, فاشتركت الجماعة في الجبهة المتحدة وأحدثت ضجة كبيرة لدرجة أن أيوب خان ترك الحكم سنة 1969. ولكن حين أجريت الانتخابات الجديدة لم يصوت الشعب الإسلامي بل صوت سكان أحد الجناحين للعلمانيين بينما اقترع سكان الجناح الآخر للاشتراكية. وهذه أيضا لم تكن مؤامرة من أحد الأفراد أو الجماعات, ولكن السبب في ذلك أن الوقت لم يكن قد حان بعد لاستخراج النظام الإسلامي من صناديق الاقتراع.

إن المشكلات التي تواجه اليوم تنفيذ النظام الإسلامي تشبه المشكلات التي كانت تعتري تنفيذ الاشتراكية قبل قرن واحد. إن التقاليد التي كان العالم القديم يقوم عليها من دين وأخلاق, كانت تخالف الاشتراكية. ولنا درس هام في الأسلوب الذي استخدمته الحركة الاشتراكية لتجاوز هذه المشكلات.

إن الاشتراكية تهيمن اليوم على أجزاء كبيرة من العالم بشكل أو آخر. وليس السبب في ذلك قرارا أصدرته حكومة ما, بل إن الأحوال التي تم إحداثها في العالم بجهود دامت قرنا ونصف قرن هي التي فعلت ذلك.

لقد استخدم مصطلح (الاشتراكية) بمعناها الاقتصادي سنة 1826 لأول مرة في مجلة بريطانية هي (المجلة التعاونية) ثم جاء مفكرون وأدباء كتبوا مؤيدين للنظرية الاشتراكية وملأوا المكتبات بمؤلفاتهم. وفيما يلي بعض الأسماء اللامعة من هؤلاء:

شارلز هول (1745 – 1825)

وليام غادون (1756 – 1836)

سين سايمون (1760 – 1825)

بابيوف (1764 – 1797)

روبرت أوين (1771 – 1858)

شارلز فورييه (1772 – 1837)

فيورباخ (1804 – 1872)

شارلز كينغسليه (1819 – 1875)

وليام موريس (1834 – 1896)

جون برنس (1858 – 1943)

سيدني وير (1858 – 1947)

برناردشو (1856 – 1950)

كارل ماركس (1818 – 1883)

فريدريك انجلز (1820 – 1895)

تولستوي (1828 – 1910)

لينين (1870 – 1924)

ستالين (1879 – 1954)

إن هناك آلافا كتبوا لأجل نشر النظرية الاشتراكية في مختلف اللغات بأسلوب علمي. وماركس وحده أمضى ثلاثين سنة يدرس في المتحف البريطاني حتى ألف الجزء الأول من كتابه (الرأسمالية). ثم ظهرت حركات عديدة أخرى من بطن هذا الفيضان الفكري مثل: الاشتراكية البولشفكية, الفابية, الاشتراكية المسيحية, الشيوعية, السندكلية, والجماعية, والاشتراكية الاتحادية العمالية, وغيرها.

ومن ناحية أخرى انتشرت في العالم شبكة من الحركات العمالية والنقابات. وهذا العمل يستمر, بكل قوة, منذ قرن ونصف قرن. وبعد قيام الحكومة الاشتراكية في روسيا أصبح نشر الأفكار الاشتراكية على مستوى حكومي منظم, فتضاعف قدرها وزادت نوعياتها آلاف المرات. وكانت النتيجة أن الناس في كل مكان في العالم متأثرون اليوم, بأسلوب أو آخر, بالفلسفة الاشتراكية. وبخلق هذا الجو كان ممكنا إقامة حكومات اشتراكية على رقعة كبيرة من العالم بحيث أصبح العقل الإنساني المعاصر يقبلها كنظام سياسي واقتصادي شرعي.

والأمر لا يقف عند هذا الحد فإن الزعماء الاشتراكيين حين تمكنوا من الحكم في روسيا سنة 1917 لم يكتفوا بالخطب كزعمائنا بل بدأوا يكافحون لجعل دولتهم قوية باستغلال الوسائل المادية. وحين كان علماؤنا الدينيون يزعمون أن لغات الغرب لغات الملحدين الكفرة, كان زعماء روسيا قد اكتشفوا أنها اللغات التي تكتنز العلوم والتكنولوجيا وأنه يمكن لروسيا أن تنقلها إلى لغتها فتتبوأ مكانتها على الخريطة.

قبل نصف قرن كان حكام تركيا يصلبون مواطنيهم لإجبارهم على لباس البرنيطة بينما كانت روسيا مشغولة بترجمة الكتب العلمية. لقد حدثت ثورتا روسيا وتركيا في سنوات متقاربة. وقد عاش زعيم الثورة التركية كمال أتاتورك (1881 – 1938) أكثر من لينين زعيم الثورة الروسية (1870 – 1924) بنحو خمس عشرة سنة ولو كان أتاتورك قد وضع الأساس الصحيح للبناء مثلما فعل لينين, لكانت تركيا اليوم واحدة من القوى الكبرى. ولكن بسبب خطأ الاتجاه, نجد روسيا تطلق الصواريخ والسفن في الفضاء بينما لا تزال تركيا مخزنا للبضائع الغربية.

إن روسيا الاشتراكية هي الدولة الوحيدة التي شعرت بأن أهم ضرورة في هذا العصر هي ترجمة الكتب العلمية إلى اللغة الوطنية.

وقد أنشأ لينين لجنة خاصة سنة 1922 باسم كومينوليت[8]. وكان واجب هذه اللجنة هو جمع الكتب العلمية من كل أنحاء العالم وترجمتها إلى اللغة الروسية. وكان لينين يعتبر هذا العمل هاما, لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على هذه اللجنة. وبسبب هذا الاهتمام الشخصي للينين أصبح يوجد في روسيا اليوم أكبر مجموعة مترجمة للكتب العلمية. وهناك مجلة في روسيا, تصدر باسم (...)[9] وهي تلخص في كل عدد منها مليون مقال علمي وتكنولوجي من مجلات تصدر في 117 دولة. ولإنجاز هذا العمل عينت الحكومة الروسية مائة ألف مترجم ويوجد في معهد (الاتحاد للمعلومات العلمية والتكنولوجية) وحده 2500 مترجم إلى جانب 22 ألف مترجم آخرين يتعاونون مع المعهد غير متفرغين. وإلى هذه الجهود يعزى التقدم الواضح الذي أحرزه الروس في الحقل العلمي.

وهم يشجعون في روسيا على تعلم لغة أجنبية في كل مرحلة من التعليم ويجب على تلميذ الابتدائية أن يتعلم لغة أجنبية حتى نهاية الدراسة. ويوجد في روسيا اليوم كثيرون ذوو مقدرة عالية على الكتابة بلغتين أجنبيتين وعلى الترجمة منها وإليها.

وبسبب الجهد الذي دام نصف قرن تمكنت روسيا من أن تصبح أول بلد في التاريخ البشري أرسلت قمرا صناعيا بدأ يطوف حول الأرض. وتتضح أهمية العلم الروسي من أن هناك 250 مجلة روسية علمية تترجم حرفيا في الولايات المتحدة وتنفق الحكومة الأمريكية على ترجمتها ملايين الدولارات.
وقد تأثر العالم كله بالأفكار الاشتراكية بسبب توسع الروس الفكري وبسبب تقدمهم المادي. وزعيمة العالم الرأسمالي تسعى اليوم إلى الوفاق مع روسيا.

وعلى العكس من هذا انظروا حال الزعماء المسلمين. لقد وقعت الثورة العسكرية في مصر سنة 1952.
والسياسة التي اتبعها زعماء الانقلاب بعد ذلك أبعدتهم عن أوروبا وأمريكا وقربتهم إلى روسيا. وقد اتخذوا عديدا من الخطوات المتطرفة اعتمادا على المساعدة الروسية البديلة لأن مصر لم تكن قادرة على أن تقف على قدميها

[8] Cominolit.
[9] Refravativyi Zhurnal.

دون مساعدة الآخرين. وقد لعبت القيادة المصرية هذا القمار الاقتصادي والسياسي أملا في الحصول على المساعدة الروسية البديلة للمساعدات الغربية. ولكن بالرغم من اللعب بمثل هذه اللعبة الخطيرة, نجد بعد ست سنوات من الثورة أن القيادة المصرية كانت تفتقد إلى مترجم مصري ينقل كلام خروشوف حين قابله عبدالناصر في 29 ابريل 1958. واضطر الزعيم المصري أن يعتمد على مترجم روسي خلال محادثته التي تعلق بها قدر العالم العربي كله. أما القادة الروس فلديهم مترجمون أكفاء لكل اللغات ولديهم مترجمون آخرون كثيرون لمرافقة الزوار الأجانب ومرافقة الشخصيات الروسية في الخارج. وقد رأينا أول رائدة فضاء روسية فالنتينا تريشكوفا حين جاءت في فبراير سنة 1973 إلى دلهي وتحدثت إلى المواطنين المشتاقين عن انطباعاتها في رحلتها الفضائية وكانت تتحدث باللغة الروسية, كان حديثها ينقل إلى اللغة الهندية في نفس الوقت.

إن الدرس الذي ننتهي إليه هو أنه لا يمكن الوصول إلى الهدف بدون خلق ثورة فكرية إسلامية توقظ العقول الإسلامية الهامدة الراقدة من ناحية, وتخلق جوا عالميا من ناحية أخرى لتقبل فكرة حكومة إسلامية في المجتمع الدولي. ولا يمكن إنجاز هذا الهدف بالاعتماد على الآخرين بل يجب على المؤمنين به أن يبدأوا العمل فورا في الدائرة المتاحة لهم ساعين إلى تقوية وتوسيع تلك الدائرة باستمرار. والمحظور الأكبر أن نتعجل رؤية ثمار جهودنا قبل نضوج الموقف. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة, فقد آثر أن يربي مجموعة آمنة, بدلا من الإعلان عن قيام حكومة إسلامية منذ الوهلة الأولى, لأن هناك تعقيدات في كل الأمور ولا يمكن حلها بالعمل المتحمس فقط, بل بالتخطيط والعمل المتواصل.

إن الدرس الذي نتعلمه من التاريخ هو أن المشاريع التي تقام اعتمادا على الآخرين لن تنجح. فلا شك في أنها فكرة جميلة أن تتعاون عديد من الدول لإنجاز مشروع ما, ولكن مثل هذا العمل دائما يتحطم على صخور الواقع العملي. إنه يجب أن نتذكر دائما ما قاله أحد المؤرخين: (إن التاريخ هو قبول الخيار الآخر.. الخيار المتاح) ولو تمكنا من فهم هذا السر لتمكنا من بناء شيء مفيد لأجيالنا القادمة.

وإذا كنا نصر على أن نخلف وراءنا ذكريات الشهادة والتضحية وحدها, مثلما فعل زعماؤنا في الماضي, فإننا لن نحتاج إلا إلى الحماس والروح الجياشة لكي نكون قادرين, بعمل متحمس, على أن نضيف شيئا جديدا لهذه

الذكريات, بسهولة. أما إذا كان هدفنا هو إعلاء كلمة الإسلام على الأرض فإن ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا بالكفاح المتعقل والتخطيط البعيد المدى. إن الخطوات الخاطئة التي خطاها زعماؤنا في الماضي لم تصبح خطوات ذات معنى, وإذا استمر زعماؤنا اليوم في السير بخطوات خاطئة متجاهلين قانون الأسباب والعلل فإن النتائج لن تكون أقل سوءا مما مضى مهما كان مقدار الإخلاص ومهما كان الحماس والاندفاع.



حــــــوار مــع المتغــربــين

إن العلم نوعان: النوع الأول ما سماه القرآن الكريم بالعلم الظاهر (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) (الروم:7), أما النوع الثاني فهو ما أطلق عليه القرآن الكريم اسم (العلم الراسخ) (هو الذي أنزل عليك الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكّر إلا أولو الألباب) (آل عمران: 7).

لقد خلق الله هذا الكون بأن أوجد لكل شيء جوانب متعددة. وإذا كان أحدنا ينظر إلى جانب واحد, أو جوانب معينة فقط, من شيء ما سوف يدلي ببيانه عن ذلك الشيء بكل ثقة فيما يقوله. ويمكن أن يكون بيانه معاكسا لحقيقة ذلك الشيء لو نظرنا إليه من كل الجوانب. فقبل عدة قرون لم تكن السفن تتخذ من حديد. وفي ذلك الزمن احتدم نقاش بين الذين قالوا بإمكان بناء السفن من حديد وبين آخرين أنكروا ذلك. وقد خالف أحد السفن وقال: إن سفينة كهذه ستغرق في البحر, ثم جاء بقطعة من حديد ووضعها في إناء مملوء بالماء فإذا بها تستقر في قاع الإناء. وهكذا اقتنع الحداد بأنه قد أثبت بالتجربة أن سفينة متخذة من حديد ستغرق في البحر. أما الآخرون الذين كانوا يؤيدون فكرة بناء السفن من حديد فقد أنكروا تجربة الحداد وجاءوا بطبق من حديد ووضعوه في الإناء فإذا به يطفو فوق الماء بدلا من أن يستقر في قاع الإناء!

إن واقعة سيدنا إبراهيم (2160 – 1985 ق.م) المذكورة في القرآن الكريم نموذج واضح للعلمين الظاهر والراسخ. والمدينة التي بعث إليها إبراهيم عليه السلام وهي مدينة – أور –كانت تعبد الكواكب. لقد كان سكان أور لا يرون من الكواكب سوى نورها وضياءها فظنوا أنها معبودات. وحين أراهم عليه السلام مظهرا آخر من الكواكب تبين لهم أن هناك جانبا آخر لجوانب حقيقة الكواكب, وهو الأفول (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون) (الأنعام: 76 – 78) أي أن تلك الكواكب تسطع وتضيء لبعض الوقت فحسب ثم تغرب وأنها, بكلمة أخرى, تابعة للنظام الكوني الذي يتبعه الإنسان في حياته. إن هذا الجانب الآخر الذي كشفه إبراهيم على قومه قد أثبت لهم أن هذه الكواكب تابعة وليس متبوعة, وأنها عابدة وليست معبودة.

ولنا مثل آخر للعلمين الظاهر والراسخ في حياة سيدنا إبراهيم. فلقد كان الملك نمرود يظن أنه قادر على حياة الناس ومماتهم لدرجة أنه أمرهم بعبادته دون الله. ولكن سيدنا إبراهيم أبان له أن الذي يظن أنه قادر على حياة الناس غير قادر على حكم النظام الشمسي.. فهنا انقلب الأمر وأصبحت المشاهدة الكونية الواسعة نفيا للمشاهدة المحدودة لبعض البشر.

وهذه هي الحالة التي نواجهها اليوم على نطاق واسع جدا. فنحن نسمع الدعاوى من جهات مختلفة بأن الحقائق العلمية التي اكتشفناها في العصر الحديث قد غيرت كل خرائط الحياة القديمة وأنه يجب على الإسلام أن يعيد النظر في معتقداته ليوائم الظروف الجديدة. ويضيف هؤلاء الذين يطالبون بإعادة النظر في الإسلام: إن الإسلام لن يبقى طويلا لو أخفقنا في إعادة النظر فيه بل ستطحنه ظروف الزمن.

تبدو هذه النصيحة ذات وزن كبير في ضوء العلم الظاهر. ولكن يتضح لنا عند دراسة القضية في ضوء العلم الراسخ أن الحقيقة مغايرة تماما.

لقد وجدت, من خلال تجاربي الشخصية, أن الناس يقدمون في هذا الصدد نوعين من الأمثلة. والنوع الأول ما لا علاقة له بالكشوف العلمية بل هو يتعلق بغلبة ورواج نظام ما وانتكاسة نظام آخر في زمن ما, كأن يقال: (إن الإسلام يحرم الربا, فكيف يمكن اتباع الإسلام في زمن يقوم اقتصاده على الربا؟) إن مثل هذه الأمثلة ليست موضوع هذا البحث, لأن الربا ليست اكتشافا علميا أو اجتماعيا لهذا العصر, بل هي مبدأ رائج منذ القدم, ورواجها اليوم يعود إلى غلبة النظام الرأسمالي على العالم. وحيث أن الربا أقوى أساس للنظام الرأسمالي وأكبر سند لتقدمه فقد سلطها النظام الرأسمالي على كل العالم لمصلحته. وهذا يعني أن نظاما آخر غير رأسمالي يستطيع أن يضع هيكلا اقتصاديا جديدا لا يقوم على الربا. وهذا ما حدث في عهد هتلر (1889 – 1945) الذي حاول أن يجري نظاما مصرفيا لا يقوم على الربا, وكان هدفه القضاء على الرأسمالية اليهودية. وهكذا ألغت البلاد الشيوعية (روسيا والصين) الربا, لأن هذه الدول التي تتبع نظام الاقتصاد الحكومي لا تحتاج إلى الربا. وهكذا سيجري الإسلام نظامه الاقتصادي حين يغلب على الأنظمة الأخرى.

إن موضوع بحثنا هنا هو ذلك النوع من الأمثلة التي تقول أن العصر الحديث قد اكتشف حقائق كان الإنسان القديم يجهلها, وأن الحقائق الجديدة تصطدم مع الحقائق القديمة. وهكذا, كما نبذنا نظام بطليموس القديم بعد اكتشاف الحقائق الجديدة, وإلا فإن الإسلام لن يتمكن من مواءمة العصر والتمشي معه بدون إعادة النظر في أفكاره.

لقد جربت – شخصيا – أمرا مدهشا في هذا الصدد, وهو أن الذين يطالبون بإعادة النظر في الإسلام, باسم الاكتشافات العصرية, يتحدثون حديثا وقورا ذا صبغة علمية حين يعبرون عن الجانب المبدئي والأيديولوجي من نظريتهم.. ولكنك حين تطالبهم بأن يأتوك بدليل على ما يقولون, فإنك تكتشف أنهم ينظرون إلى الأمر نظرة سطحية وأنهم لم يغوصوا بعد إلى أعماق القضية التي يتناولونها, بل إنهم يلوكون كلمات للغير دون أن يفهموها.

إن الذي يجري دراسة مقارنة بين علم النجوم القديم وعلم الفلك الحديث, أو بين علم الكيمياء القديم والكيمياء الحديثة: سيجد أن البون واسع وعظيم بين علمي الفلك والكيمياء الحديثين وبين نظيريهما القديمين, وأن العلمين الجديدين واضحان ولديهما أدلة قاطعة. ولكن حين تطالب المتغربين المتحدثين باسم العلم الحديث بأن يأتوا بدليلهم العلمي الذي يحتم إعادة النظر في المعتقدات الإسلامية, ستجد أنهم يأتونك بأدلة غريبة وواهية تجعل الحوار والنقاش كله مضيعة للوقت. والسبب في هذا أن المعلومات والأدلة القطعية التي توصل إليها الإنسان في مجالات الطبيعة والفلك لم يتوصل إلى مثلها في مجال العلوم الاجتماعية. لقد أراد بعض البشر أن يكملوا المجموعة حين أصروا على ترقيع الاكتشافات العلمية باكتشافات أخرى في مجالات الاجتماع. والحقيقة إن الإنسان لم يصل بعد إلى شيء جديد أو نهائي أو قطعي في المجالات الاجتماعية.

كيف تعوق السطحية هؤلاء دون فهم الحقائق؟

لنفهم هذا من مثال.. لقد كنت أتحدث ذات مرة مع شخص مثقف ثقافة عالية, وكان الحديث يدور حول الارتقاء الطبيعي. وقال لي ذلك الشخص:

لقد حاول بعض العلماء المسيحيين أن يثبتوا أن الارتقاء محض نظرية وليس حقيقة علمية, لأن هذه النظرية لم تخضع للإثبات التجريبي والعلمي. ولكن محاولاتهم هذه دليل على جهلهم..

وأضاف يقول:

لقد قابلت في أمريكا عالما أخبرني أن الفارق الذي كانوا يتصورونه بين الواقع العلمي وبين النظرية في بداية هذا القرن: لم يعد له وجود اليوم. وأصبح من المسلم به الآن أنه ليس من الضروري لنظرية ما أن تكون قابلة للتجربة والعرض والإعادة حتى يعترف بها كحقيقة علمية. فلو وجدت حقائق وشواهد تساعد العلماء على استنباط نظرية ما فستكون تلك النظرية حقيقة علمية. وطبقا لهذا المبدأ سلموا بأن الارتقاء نظرية علمية. فهناك حقائق كثيرة معروفة تؤكد على الاستنباط العلمي لحقيقة الارتقاء ووجوده, بالرغم من عدم خضوعه للعرض والإعادة.

وأجبت على هذا الشخص:

إنني على علم بالأمر الذي أخبرك به العالم الأمريكي, وقد قرأت عنه شيئا كثيرا. ولكن الشيء الوحيد الذي يثبته هذا المبدأ هو أن العلماء الجدد قد أنزلوا منهج الاستدلال من مكانته السابقة. وليس لنا أن نعترض على تصرفهم هذا. ولكن المبدأ الذي تثبت به جهل المؤمنين بالدين هو في حقيقته سلاح فعال في أيديهم. إن هذا التطور قد أعطى في أيدي المؤمنين بالدين فرصة لإثبات العقائد الدينية طبقا لأساليب الاستدلال العلمية, وهو الأمر الذي كان يبدو مستحيلا في ضوء المعيار الاستدلالي القديم الذي كان يطالب بأن تكون النظرية العلمية قابلة للعرض والإعادة, وبكلمة أخرى: أن يكون هناك رابط مباشر بين الاستدلال والشيء المستدل منه, كالعلاقة بين زر الكهرباء ولمبته.. وقد اختفى هذا الشرط في معيار الاستدلال الجديد. وهكذا أصبح استدلال أهل الدين بوقائع هذه الدنيا على وقائع العالم الآخر استدلالا علميا خالصا, بينما لم يكن الأمر كذلك قبل نصف قرن من الزمان.

وقلت له:

إن هذا التطور ليؤكد, بصورة مدهشة, على ما قاله الله تعالى: (واللهُ غالبٌ على أمرِهِ) (يوسف: 21). فقد وضع علماء القرن التاسع عشر قوانين للاستدلال لم يكن بالإمكان استخدامها لإثبات الحقائق الدينية, ولكن الله تعالى فتح بعد ذلك أبواب اكتشافات وحقائق كونية أخرى جعلت العلماء يوسعون دائرة المعايير الاستدلالية. وهذه المعايير الجديدة تثبت حقائق الدين إثباتا علميا. إنها انتصار لأهل الدين, ولا يمكن اتخاذها ذريعة لإثبات جهلهم!

* * *

إن أحد المسلمين (الليبراليين) يكتب فيقول:

(لا ينبغي اعتبار ما جاء في القرآن حول ظواهر الطبيعة والحقائق العلمية مقدسا, بل يجب فتح الباب للنقد. لقد تغيرت فكرة الكون والزمن الرائجة في عصر كوبرنيكوس (1473 – 1543 م), ويجب على الإسلام أن يراعي هذه المتغيرات وأن ينهي التعارض الديني مع العلم. وعلى سبيل المثال: لا ينبغي التأكيد على ولادة المسيح بدون أب, كما أنه لا وجود لأساس علمي للعقيدة الدينية القائلة بالسماوات السبع).

إن من الحقائق المعروفة أن القرآن ليس بكتاب علوم, بل هو كتاب لهداية الإنسان, ولكنه في الوقت نفسه يركز أدلته على الظواهر الطبيعية, ويلمس موضوعات كثيرة هي من صميم مجالات العلوم الطبيعية. ولو درسنا هذه النقطة, بإمعان, اتضح لنا أن موضوعات القرآن الكريم في هذا الصدد تنقسم إلى قسمين:

(أ) موضوعات أصدر العلم الحديث آراء قطعية بشأنها.

(ب) موضوعات لم يتمكن العلم الحديث من الإدلاء بأي رأي قطعي بشأنها, بعد.

وفيما يتعلق بموضوعات القسم الأول (أ) فلم يتعارض أي كشف علمي, بعد, مع ما ورد في القرآن الكريم.

وعلى سبيل المثال حين تحدث القرآن الكريم عن الذرة قال: (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) (يونس: 61), أي أن القرآن يقرر أن هناك وجودا أصغر من الذرة, وهو أمر كان إنسان القرن السادس الميلادي يجهله, إلا أن الكشوف العلمية الحديثة قد أثبتت صدق هذه الفكرة. وهكذا يقول القرآن عن مجيء الليل عقب النهار: (يطلبه حثيثا) (الأعراف: 54), وهو تصور كان مجهولا لدى الإنسان القديم الذي لم يكن على علم بأن الكرة الأرضية مدورة وأنها تدور محوريا. وقد أثبتت الاكتشافات الفلكية الجديدة صدق هذا التصور.. وهناك أمثلة أخرى كثيرة في القرآن لهذا النوع من الآيات, وليس قصدنا هنا استقصاؤها.

* * *

والسؤال الآن عن موضوعات القرآن الكريم من النوع الثاني (ب). وكلا المثالين المذكورين في اقتباسنا من مسلم ليبرالي يتعلق بهذا النوع الثاني, وعلى سبيل المثال نذكر قضية ميلاد سيدنا المسيح بدون أب. فإنه مما لا شك فيه أن العلم الحياتي لم يكتشف, بعد, قانونا يثبت أنه يمكن لامرأة أن تلد دون اتصال مباشر أو غير مباشر برجل,

ولكن مما لا شك فيه, أيضا, من جهة أخرى, أن العلم لم يكتشف قانونا مضادا آخر يقول بعدم إمكان الولادة بدون اتصال امرأة برجل. وكان يمكن لمبدأ القرن التاسع عشر القائل بوجوب التسلسل أن يقيم دليلا حول هذه القضية, ولكن اكتشافنا لمبدأ عدم التيقن[10] قد أنهى إمكانية دليل كهذا.. ولذلك فإن أقصى ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن الولادة بالأب والولادة بدون أب أمران من نوعية واحدة. فليس لدينا أساس علمي, بعد لرفض أحدهما وقبول الآخر. ثم إن ولادة المسيح عليه السلام بدون أب لا تعدو مجرد قضية نظرية حين نأخذ في الاعتبار الحقيقة الأزلية وهي أن الحياة البشرية الأولى في هذا الكون قد وجدت بدون أب, وحينذاك نتأكد من أن قضية ولادة المسيح بدون أب واقع ذو نظير مماثل في الكون.

وقضية (السموات السبع) أيضا من هذه النوعية. فمن الوقائع المعروفة أن معلومات الإنسان عن الكون جد محدودة لدرجة أن نظرية الأعماق السوداء[11] تقول بأن الإنسان لم يشاهد سوى ثلاثة في المائة من الكون المادي, أما الأجزاء السبعة والتسعون الباقية فالإنسان غير قادر على مشاهدتها. والواضح أن السموات السبع تعني سبع طبقات سماوية. وإذا كانت معرفة الإنسان محدودة بثلاثة في المائة من الكون, وهذه الأجزاء الثلاثة في المائة تنحصر في الأجزاء المادية دون أجزاء الكون الأخرى غير المادية وغير المحسوسة, فكيف تجوز المطالبة بتغيير آية السموات السبع أو بشرحها شرحا جديدا..
إنه قول خال من الدليل من الناحية العلمية المحضة.
* * *

ويقول بعض المتغربين:
"إن القانون حقيقة متطورة, بينما الشريعة شيء جامد, ولذلك لا يمكن أن تكون الشريعة قانونا لكل العصور".

ويبدو هذا القول وقيعا في الوهلة الأولى, ولكن عند بحثه, بعمق, يتضح أنه قول خال من الثقل العلمي في ضوء الأبحاث التي أجريت حتى الآن.

---

[10] Principle of Indeterminacy.
[11] Black Holes.

إن هناك قانونين في الكون الذي نعيش فيه: قانون طبيعي وآخر أخلاقي. والقانون الطبيعي ــ الموضوع الخاص للعلوم ــ هو قانون جامد بإجماع كل الناس, وهو موجود في صورته المقررة منذ ملايين السنين, وهو يفيد البشر بصورة متساوية في كل العصور. والأمر لا يقف عند هذا الحد, بل إن مصالحنا تقتضي, بصورة مؤكدة ألا نحاول تغيير هذا القانون, وأن نتعرف عليه ونستخدمه كما هو. وتؤكد هذه الحقيقة على أن (الجمود) في نفسه ليس عيبا, بل هو (الحق النهائي) فيما يتعلق باكتشافاتنا حول الكون الطبيعي.

أما القوانين الأخلاقية, فلا شك في أن الإنسان يغير معاييره الأخلاقية من وقت لآخر. ولكن هذا الأمر ليس بكاف لإثبات أن القوانين الأخلاقية إضافية أو متطورة. والسبب في ذلك أننا نعرف أن الإنسان مخلوق حر, وهو يقدر على الظلم والعدل معا. ولذلك لا يكفي عمل الإنسان أو البشر في زمن ما لإثبات أو بطلان معيار أخلاقي ما. ولا يمكن اعتبار عمل ما للإنسان صحيحا إلا إذا أثبتت الدراسة العلمية صحته.

وأريد أن أذكر القراء هنا بأن نظريات الفلسفة والأخلاق والعلوم الاجتماعية لم تتمتع, بعد, بتصديق علمي لها.

والأخلاق الجديدة, التي انحرف إليها الإنسان نابذا المعايير الأخلاقية القديمة, لا تتمتع إلا بقيمة الرواج, ولم تتحقق, بعد, أن علما من هذه العلوم يقف على أسس علمية ثابتة.

وفي مقابل ذلك, يتمتع أهل الدين بقرينة علمية, وهي قرينة القانون الطبيعي الدائم وغير المتغير. وبناء على ذلك فإن القوانين الأخلاقية السماوية أيضا دائمة وغير متغيرة, أو على الأقل ينبغي أن تكون كذلك. هذا, بينما يفتقد الفريق الآخر أي دليل أو قرينة لصالح دعواه.

* * *

والذين يستدلون على ضرورة تغيير الأديان, يسوقون أحد أدلتهم عن طريق اللغة. فيقولون: (إن الوسيلة التي تنقل إلينا الحقائق الدينية هي اللغة. وهي وسيلة ناقصة وبشرية ومتغيرة. وليس هناك من لغة تكتب وتفهم لأكثر من خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة. وهناك مخطوطات كثيرة في العالم لا تعرف معانيها بعد) .. وخلاصة هذا الاستدلال أنه ما دامت وسيلة نقل الحق إلينا متغيرة, فكيف يمكن أن يكون الحق غير متغير, لأنه بتغير اللغة ستتغير معاني الكلمات المستخدمة في نقل الحق, وبذلك سيتغير من عصر إلى آخر.

إن تغير الألسن واللغات أمر مألوف في التاريخ اللغوي البشري ولكن ذلك ليس بقانون ثابت عن كل لغة, وهو لا ينطبق, على أي حال, على لسان القرآن الكريم. فقد نزل القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا, وتوسعت اللغة العربية خلال هذه المدة توسعا كبيرا, ولكن اللغة العربية نفسها لم تتغير. فلغة القرآن مفهومة لدارس اللغة العربية, اليوم, تماما كما كانت مفهومة للعرب عند نزول الوحي. ويعني هذا أن هذا الاستدلال اللغوي لا ينسحب على القرآن أو الإسلام حتى هذا القرن العشرين على الأقل!

ولكننا لو افترضنا, جدلا, أن اللغة العربية قد تتغير في زمن من الأزمنة كاللغات الأخرى, فإن الأمر لن يختلف فيما يتعلق بفهم التعاليم الإسلامية, فالآداب القديمة لأية لغة تختلف عن آدابها الحديثة, ومع ذلك يدرسها الدارسون ويطالعها الطلبة. وعلى سبيل المثال فإن لغة شكسبير (1564 – 1616 م) تختلف بعض الاختلاف عن اللغة الانجليزية المتداولة الآن, ولكن دارس الانجليزية يستطيع أن يفهمها. أمة لغة أول شاعر في الانجليزية شوسر (1340 – 1400 م) فمختلفة تماما عن اللغة المتداولة اليوم لدرجة أن دارسا عاديا للانجليزية لن يفهمها بسهولة. ولهذه المشكلة حل في المعاجم والشروح. وهكذا لو تغيرت اللغة العربية تغيرا كبيرا (بالرغم من استحالة ذلك في هذا العصر المختص بالصحافة ووسائل الإعلام) فإن المعاجم والشروح ستحل مشكلاتنا في فهم القرآن تماما كما تقوم معاجم اللغات الأخرى في شرح آدابها القديمة.

لقد اشتركت ذات مرة في ندوة للعلماء المتغربين. وقدم فيها أحد الباحثين مقالا يصف فيه قصة آدم بأنها (تفسير رمزي), أي أن القصة التي تذكرها سورة البقرة ليست بواقعة, بل هي قصة تمثيلية تماما كما كان الحكماء القدامى يذكرون النصائح في صورة قصص. وكانت العقبة أمام هذا الباحث أن قصة آدم تذكر الجنة, وهو يؤمن بأن الجنة ستكون في المستقبل, فكيف وجدت في الماضي!!

وأثار عالم آخر في تلك الندوة سؤالا آخر للتدليل على تغير القانون الإسلامي وعدم ثباته, ويتلخص في أننا قد تمكنا من صناعة طائرات تفوق سرعتها سرعة دوران الأرض (ألف ميل في الساعة), فإن صلى بعض الناس صلاة المغرب ثم استقلوا طائرة أسرع من دوران الأرض واتجهوا من الشرق إلى الغرب, وحيث أن الطائرة ستطير بهم بسرعة تفوق سرعة دوران الأرض, فهم قد يصلون إلى حيث يريدون قبل غروب الشمس, فهل يعني ذلك أن

هؤلاء سيعيدون صلاة المغرب؟

إن الرد الفقهي على هذا السؤال البسيط, وهو أن الله تعالى فرض علينا خمس صلوات في الليل والنهار (أي عند اكتمال دورة محورية واحدة للأرض), ولذلك لو تغيرت أوقات الشروق والغروب بالنسبة لشخص ما, فإنه سيقسم أوقات صلواته طبقا لظروفه الخاصة. ولكن, بغض النظر عن هذا, فإن من الغريب أن هناك أناسا يطالبون باعتبار واقعة آدم قصة تمثيلية لمجرد أن تفترض الجنة في الماضي!! ويحدث هذا في عصر يثبت أن الزمن إضافي وأن فروق الحال والمستقبل في الأشياء لا تكون طبقا لحقيقة تلك الأشياء, بل طبقا لمشاهدتنا المحدودة.

إنك لو نظرت إلى هاتين المشكلتين, على حدة, لبدا لك أنهما قضيتان, ولكنك لو دمجتهما ونظرت بعمق لوجدت أنهما يصدقان على العقائد الإسلامية تصديقا علميا كاملا, لأن هذا التصور يزيل كل القضايا التي تنشأ بسبب تقسيم الزمن إلى ماض وحال ومستقبل. وهذه هي نظرية آينشتاين عن الزمان والمكان, والتي تعتبرهما (التسلسل الزماني المكاني)[12].

* * *

في اجتماع ضم عددا كبيرا من المثقفين المسلمين بدلهي كان السؤال يدور حول الأسلوب الذي نعرض به الدين على غير المسلمين. وقد طرح بعضهم فكرة تقول إن السبب في عدم انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية هو أن الإسلام لم يقدم إلى الأهالي بلغتهم وحسب طبيعتهم .. أي أننا لو قدمنا إليهم (طبعة هندية) للإسلام لأقبلوا عليه .. وذلك كأن نتخذ الأسماء التي يطلقونها على الآلهة وأن نؤدي الفرائض باللغة الهندية, إلخ.. وتعني هذه الفكرة أن الإسلام لم ينتشر في أرجاء العالم, لأننا لم نقدمه وفقا لأوضاع البلاد المختلفة ولأننا لم نقدم طبعة جديدة تلائم القرن العشرين.

وقال أحد المتحدثين في الاجتماع المذكور: إن المسلمين حكموا الهند ثمانية أو تسعة قرون ولكنهم فشلوا في نشر المفهوم الصحيح للإسلام بين غير المسلمين, وزعم هذا المتحدث أن المهاتما غاندي قد بحث ذات مرة عن

[12] Time – Space Continium.

شخص يعرف معاني القرآن الكريم فلم يعثر إلا على رجل واحد يفهم معاني سورة الإخلاص!

وقد قلت إن العقبة التي نواجهها ليست هي أننا لم نقدم طبعة هندية أو طبعة عصرية للإسلام, وإنما هي أننا معشر المسلمين قد فقدنا الخصائص والمميزات التي تجعل الناس يهتمون بأمر جماعة ما..

إننا نرى اليوم جماعات الشباب وهي تطوف بشوارع لندن ونيويورك تهتف بشعارات هندوسية, رغم أن كلمات هذه الشعارات غريبة عليهم كل الغربة. والمبشرون المسيحيون يستقطبون الملايين إلى دينهم في أرجاء العالم ولكن اللغة العبرية أو اللاتينية التي يتلون بها أدعيتهم لم تقف عقبة في وجه المسيحيين الجدد. إن الحقيقة أن لكل دين مصطلحاته التي تعبر عن معتقداته وتاريخه, ولذلك, فإن تغيير مصطلحات دين ما يعني تغيير الهيكل والبناء الأساسي لذلك الدين.

إن الشرط الأساسي والأول لنشر الإسلام أن نتحلى بهذا الدين في سلوكنا وأن نصبح نماذج حية لتعاليمه. وكيف لنا أن ندعو الآخرين للإيمان به ونحن لا نطبقه في حياتنا, وبالتالي نؤكد عمليا أننا لا نؤمن به في حقيقة الأمر. وهناك شرط آخر لنجاح الدعوة, وهو أن تكن في قلبك الحب والنصيحة الصادقة للذين تدعوهم وترجو هدايتهم. ولتسمحوا لي مرارة الكلام, فنحن لا نحب أهل ديننا أنفسهم فكيف لنا بحب الذين ندعوهم للحق؟

إن حالتنا الراهنة هي أننا لا نكن عواطف الرحمة والنصيحة لأحد, ولا يوجد بيننا أحد ينصف الآخرين. إن كل جماعة منا مشغولة بالإساءة إلى الأخرى. ولو كانت جماعة منا تقوم بعمل جيد فإن جماعة أخرى لن تنظر إلى هذا العمل بعين التقدير والاستحسان بل ستبادر بالبحث عن النقائص والعيوب لأنها تظن أن عملا جيدا تقوم به جماعة (أخرى) سينتقص من مركزها وأهميتها. واليوم, لو نقدت أحدا وأثبت له بكل القرائن والأدلة أن نقدك صحيح مائة في المائة, فإن من المستحيل أن يتقبل هذا الشخص نقدك بصدر رحب. إنه سوف يستغل كل كلمات المعاجم ليثبت أنك أنت المخطئ وأنك لا تعرف سوى الشتيمة وقذف الأبرياء.

إنه من العبث أن نتحدث عن الدعوة ونشر الإسلام بينما هذا هو الرأسمال الذي نمتلكه من الأخلاق. إن أمثال

هؤلاءِ لن ينشروا الإسلام, ولم يحدث أن انتشر الإسلام على أيدي أمثال هؤلاء .. إن اللغة التي تتطلبها الدعوة هي لغة المحبة وغاية النصح. ولا يمكن لأية لغة أخرى أن تنشر الإسلام.



إمكانات لم يستخدمها العالم الإسلامي

شاءت البلدان الإسلامية, عقب تخلصها من الاستعمار الغربي, أن تحصل على نصيبها من النهضة الحضارية .. ولا نريد أن نناقش هنا أهمية هذه النهضة في الإسلام, بل نشير إلى أن هناك سبيلين للدخول إلى هذه النهضة, أحدهما يكمن في أنموذج الصين والثاني في الأنموذج الياباني.

أرادت الصين الدخول إلى طور النهضة الجديدة, فقررت تنفيذ كل مشروعاتها بأيدي مواطنيها. لقد استخدمت الصين الأيدي البشرية وحدها في الأعمال التي تقوم بها – في العالم الإسلامي – الآلات المستوردة الضخمة لإقامة الجسور والبنايات والمصانع.
لقد نفذت الصين كل هذه المشاريع بالأيدي البشرية, بمعنى الكلمة. لقد استخدموا هناك مئات, وآلاف, بل مئات الألوف, من العمال لتنفيذ مشروع واحد, لقد فرضوا الحياة البسيطة على أعلى المستويات. وبدلا من استيراد أفخم الملابس والسيارات من أوربا, أصبح شعار الصين ارتداء الملابس الوطنية الخشنة والاعتماد على المركبات المحلية. والصين دولة قوية في عالم اليوم بعد أن مضت عشرين سنة على هذه الحالة. إنها لا تستجدي أحدا اليوم, بل الآخرون يطلبون منها العون.

وقد قدمت اليابان الأنموذج الثاني. فقد دفعت اليابان ثمن ضعفها بأن تحطمت على أيدي الحلفاء في الحرب العالمية الثانية, ثم واجهت قضية الدخول إلى ميدان النهضة التمدنية. وكانت اليابان مضطرة للاستمرار في علاقاتها مع أمريكا. وقد استخدمت اليابان هذا الاضطرار بأن حاولت النهوض بصناعاتها وتعليمها إلى أعلى المستويات. ولم تنظر اليابان إلى الدولارات الأمريكية المتدفقة عليها: إنها وسيلة لشراء الترف من الخارج, بل سخرت كل قوة البلاد لإنهاض العلوم والصناعة والتكنولوجيا اليابانية.

وقد استغرق تنفيذ هذه الخطة عشرين سنة في اليابان. وفي هذين العقدين من الزمن حول اليابانيون بلادهم إلى يابان جديدة تختلف اختلافا كبيرا عن التي دمرتها القنابل الأمريكية. وإمكانات اليابان اليوم, تتحدى أمريكا نفسها. والمراقبون الذين كانوا قد أصدروا وثيقة الموت لليابان قبل ربع قرن فقط, يتنبأون اليون بأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن اليابان مثلما اقترن هذا القرن بأمريكا والاتحاد السوفييتي.
لقد تمكنت اليابان من تحقيق التفوق التجاري على أمريكا, وهي لا تزال خاضعة لها. وبدأت الصحف الأمريكية

تنشر مقالات تتساءل فيها: كيف نواجه الحملة اليابانية التجارية؟!

أما العالم الإسلامي.. فقد حصل على السنوات العشرين نفسها التي حصلت عليها الصين واليابان. ولكن النهضة التمدنية في العالم الإسلامي لا تعني سوى استيراد سيارات الغرب وطائراته, وتزيين بيوتنا بمواد مستوردة. ونحن نصر على المضي على هذا المنوال ولو أصبح اقتصادنا الوطني مرهونا لدى الأعداء.

إن الخسارة المادية ليست خسارة حقيقية في نظر الإسلام. ويمكننا الصبر على انتقال رؤوس أموالنا إلى دول أجنبية بسبب الأخطار وسوء التخطيط والحماقة, ولكن صبرنا مقرون بشرط ألا تجلب هذه الخسائر المادية خسرانا دينيا من ورائها.

لقد رضي اليهود بالمعاهدة التي عقدها الرسول الكريم – عقب الهجرة – لأنهم اطمأنوا إلى أنها تضمن استمرار نظامهم الاقتصادي والاستغلالي. والمعاهدة التي أبرمها الرسول الكريم مع قريش في السنة السادسة من الهجرة في الحديبية تضمنت شرطا يقضي بحرية الكفار في أسفارهم التجارية والأنشطة الاقتصادية .. ويعني هذا أن المسلمين سلموا باستمرار الاستغلال الاقتصادي الذي كان الكفار واليهود يمارسونه .. ولكن هذه المهادنة المؤقتة لا تعني أن يسمح المسلمون لغيرهم بالاستمرار في استغلالهم الاقتصادي وأن يظل المسلمون دون نصيب في عالم الاقتصاد. إن هذا الرضوخ المؤقت لمصلحة الكفار يكون لأجل هدف أعظم وأشمل, وهو أن يستخدم المسلمون جو الأمن والصلح الذي ينتج عن المعاهدة لنشر الإسلام واستقطاب الأتباع من بين الكفار ولتدعيم المجتمع الإسلامي.

إن الحالة التي واجهها النبي الكريم في السنوات الأولى من الهجرة: موجودة اليوم بصورة أقسى وأعمق من ذي قبل. إن الدول التي تهيمن اقتصاديا على العالم الإسلامي محرومة من أغلى شيء في هذا الكون, وهو دين الحق والفطرة الذي لا يوجد سوى عند المسلمين.

وليس من واجب المسلمين نشر هذا الدين بين غير المسلمين فقط, بل إن خصائص مدهشة تكمن في هذا الدين لتسخير العالم ولو تمكنت جماعة ما من إظهار دين الفطرة في العالم فهي سوف تسخر الشعوب التي تستغل العالم الإسلامي اقتصاديا. والإسلام المغلوب على أمره سيصبح غالبا حينذاك.

إمكانات مدهشة:

إن التاريخ قد أتاح للعالم الإسلامي إمكانا جديدا.

إن دراسة العالم المعاصر تدلنا على أن فيضان النهضة المادية قد وصل إلى آخر مداه, وأنها غير قادرة على إعطاء السكينة لقلب الإنسان. إن موجة من انعدام الثقة والطمأنينة النفسية تغزو كل العالم.

إن الدين ينهض اليوم من جديد في روسيا, بعد نصف قرن من القهر. وحركات الشباب الفوضوية في الغرب نتاج لانعدام الطمأنينة. ويطلق شباب اليابان اسم (ثقافة التجارة) على ثقافتهم التي لا توافق سوى جزء من حاجات الوجود البشري. إن داء (القلق) وانعدام الثقة قد غزا الجيل الجديد في العالم كله.

إن هذه الأحوال تتيح فرصة ذهبية لحاملي دين الفطرة لإرواء عطش العالم ولإظهار دين الله. إنها أعظم فرصة أتيحت في التاريخ كله لنشر دين الله, فنحن, من ناحية, نتمتع اليوم بأضخم وسائل الإعلام والاتصال, ومن ناحية أخرى يبحث الإنسان المعاصر عن دين يستجيب لجميع مقتضيات وجوده, بعد ضياع طويل في متاهات المادة .. كأنه يقول بلسان الحال ما قاله قس بن ساعدة قبل الإسلام: ربي لو كنت أعرف كيف أعبدك لعبدتك.

ولو أردنا أن نغزو العالم عن طريق الجامعات والمصانع الضخمة والطائرات, فأغلب الظن أننا سنفشل في ذلك ... والسبب في ذلك أن الغرب في تطور مستمر منذ أربعة قرون, وسيكون قد دخل ما يسمى بـ(العصر ما فوق الصناعي) حين نكون قد وصلنا إلى ما قد وصل الغرب إليه اليوم.

إن أقرب الطرق لظهور المسلمين في هذا العالم يمر بالدعوة وتبليغ كلمة الله. إنه الطريق الذي لن نحتاج فيه لفتح جبروت فارس والروم, بل إن كل أدوات الجبروت ستسلم أمرها للداعي طواعية.

إن الطريق الذي كشفه الغرب هو طريق الفتح بالحديد والحجر في آخر صوره, ولكن طريق الإسلام هو فتح الإنسان. والحديد والحجر يستسلمان تلقائيا حين يستسلم صاحبهما. إننا لن نكون في حاجة إلى فتح الأدوات المادية بعد أن نفتح قلب صاحبها الإنسان.

إن قوة المسلم كامنة في الدين الكامل الذي أرسله إليه رب الكون. ولو نهض المسلمون يدعون البشر إلى دين الله لاستسلم العالم كله لهم. ليت الدول الإسلامية تتفهم هذا السر وتبحث عن مواقع النفوذ لدين الله, بينما تبحث الدول الأخرى عن مواقع النفوذ بالدولارات ومن أجلها.

إن قافلة الأمة المسلمة المحطمة تبحث عن مستقبلها بمختلف الطرق. ولكن العجيب أنها لم تسلك بعد طريق الدعوة. إن المستقبل الذي تبحث عنه الأمة الإسلامية لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الدعوة.



الإيمان والحركة الإيمانية

ما هو الإيمان؟ إنه في كلمة واحدة: اكتشاف الإنسان لله. إن واحدا من أهم الأسئلة الأزلية أمام الإنسان هو عن منبع شخصيته ووجوده. إن الحياة الإنسانية واسعة, لدرجة أن أية موسوعة لا تكفي لمجرد فهرسة العلوم الإنسانية. فهذه الأجزاء والعناصر من حياة الإنسان, التي لا حدود لها, هل هي وحدات متباينة, وهل ينبغي معالجة كل وحدة منها على حدة, كعمل المهندس الذي يضع كل ترس وجزء من الماكينة الكبيرة, في مكانه المخصص, واحدا بعد الآخر, ولو ضاع منه ترس واحد لتعطلت الآلة, وظلت ناقصة.

فهل الإنسان أيضا مثل الماكينة؟ ولو صح هذا, فإن إصلاح الإنسان سيكون مستحيلا من الناحية العملية. وذلك لأن الحياة الإنسانية تتركب من أجزاء وتروس لا حصر لها, ولن يجرؤ مصلح أو مفكر أن يبحث عنها كلها, ثم يحاول وضع كل جزء وترس منها في مكانه. بل, إن مطالعة علم النفس تنفي هذه الفكرة عن الإنسان. إن علم النفس يدلنا على أن الوجود الإنساني – سعته وشموله – يحتوي على وحدة أساسية, هي من الجسم كالموتور (المحرك) من الماكينة. إنك تقوم بتشغيل الماكينة كلها حين تضع يدك على المحرك, وإنك تنهي, كذلك, حركة الماكينة كلها, باستخدام المحرك, مرة أخرى.
لقد اعترف جميع العلماء والفلاسفة بهذه النوعية الخاصة بالوجود الإنساني, بأسلوب أو آخر, ولكن آراءهم اختلفت حول منبع هذه الخواص وأصلها.

الدراسة الموضوعية عن الإنسان:

إن أهم التطورات العلمية التي وقعت في القرون الماضية هو دراسة الأشياء من خلال هيكلها الظاهري (الخارجي), والتعامل مع كل مسألة على أنها مسألة موضوعية[13], إن نجاح هذا الأسلوب للدراسة في بعض فروع العلم جعل بعض الناس يجربونه على الإنسان نفسه. وقد حصلنا على عدة إجابات (موضوعية), نتيجة هذه المحاولات. وأهم هذه الإجابات فلسفتا (الجمهورية) و(الاشتراكية). وكلتاهما تدعي حل مشكلات الإنسان ومعضلاته.

إن النظرية الأولى (الجمهورية) تقول: (إن الإنسان حيوان سياسي). أي أن السياسة هي العامل الجامع بين

[13] Objective.

الجوانب الشاسعة من الحياة الإنسانية, وأن السياسة هي الأصل الذي يجمع ويوفق بين كل الجوانب الأخرى. وتدعي أن كل جانب من جوانب الإنسان – من حياته الخاصة إلى الأسرة والمجتمع الصغير والكبير – تابع (للسياسة) مباشرة أو بصورة غير مباشرة .. وأن السياسة هي المنبع الأساسي الذي – بوضع اليد عليه – نضع يدنا على الحياة كلها, وبفقداننا إياه نفقد معنوية الحياة كلها.

ولكن النظرية الأخرى (الاشتراكية) ترفض هذا التفسير, وتقرر أن: (الإنسان حيوان اقتصادي!) أي أن الجامع الذي يجمع بين مختلف جوانب الحياة الإنسانية, في مجموعة متناسقة, وهو نظام الإنتاج الاقتصادي الذي يوجد في الحياة الخارجية للإنسان. وأن نظام الإنتاج والتوزيع هو الذي يكون الحياة الإنسانية ويعطيها صورة متميزة. ولذلك, فإن فلاح الإنسانية والمؤسسات الاجتماعية أو فسادها موقوف على هذا الأساس.

إن الحديث لن يطول فحسب, بل سيخرج عن نطاق القضية المطروحة هنا, لو أردت تحليل كلتا النظريتين هنا. وبالاختصار, فإن الفلسفتين اعتبرتا, قبل قرن, أهم كشوف التاريخ, ولا تزالان تهيمنان على الخريطة السياسية للعالم, لكنهما قد حرمتا اليوم من رأسمال اليقين من الناحية الأيديولوجية أو القيمة النفعية.

إن الدراسة العلمية لآثار النظريتين لم تصدق دعاويهما. إن باحثي العصر يشكون بشدة فيما إذا كانت الدعاوى الرنانة التي أطلقها مخترعو النظريتين الأوائل تتمتع بأي قدر من الصدق العلمي.

هذا من الناحية النظرية.

أما من الناحية العملية التطبيقية, فإن الأحوال السائدة في كل الدول التي طبقت النظريتين لدليل فاصل في إخفاقهما في حل قضايا الإنسان.

لقد تمتع السوفييت بفرصة ذهبية, وتمكنوا من إخضاع أرض شاسعة جدا لتجربة الفلسفة الاشتراكية, بدون عوائق, والآن, بعد أن احتفلوا بمرور نصف قرن على هذه التجربة, قد اتضح لجميع الناس – ما عدا حكام الكرملين – أن هذه التجربة فاشلة بصورة قطعية. إن هذه التجربة المريرة لم تحل قضية الإنسان الروسي حتى بذلك القدر الذي كان متوفرا في عهد القياصرة.

وتلك هي حالة الجمهورية أيضا. لقد تمتعت تجربة الجمهورية بفترة أكبر من الاشتراكية وبأرض أوسع منها. ولكن

خلاصة التجارب هي أن الجمهورية لم تستطع أن تثبت لنا كيف يمكن إصلاح جميع جوانب الحياة البشرية بالإمساك بتلابيب السياسة. لقد هب الطوفان الجمهوري بقوة جارفة حتى أزاح بمعظم النظم القديمة, وانجرفت في هذا الطوفان حتى تلك المستعمرات التي كانت البلاد المخترعة لفكرة الجمهورية قد استولت عليها فيما وراء البحار. إن دعاوى الجمهورية لم تحقق صدقها في فرنسا حيث مسقط رأس الجمهورية, ولا في الهند حيث تم استيرادها فيما بعد.

ولو درسنا النتائج فحسب, فسيتضح أن مثال الجمهورية والاشتراكية فيما يتعلق بمجال إصلاح الحياة هو كأن تعطي ماكينة عاطلة لأحد الجهلة, فيزعم أن ترسا من التروس هو السبب الحقيقي وراء تعطل الماكينة, ثم يبدأ في دقها من مختلف الزوايا. إن هذا الجاهل بالهندسة سيظل يدق التروس حتى يأتيه أجله دون أن يتمكن من إصلاح الماكينة أو معرفة السر الكامن وراء تعطلها.

الروحانية الجديدة:

ثم تمر أمامنا جماعة أخرى جديدة. إن هؤلاء يزعمون أنهم يدرسون الحياة كقضية **غير موضوعية**. إنهم يقولون: إن منبع الحياة هو الروح أو الشخصية الداخلية للإنسان .. وإن هذه الشخصية الداخلية هي أصل الحياة البشرية بالرغم من عدم خضوعها للرؤية .. وإن هذه الشخصية الداخلية هي التي تصلح الحياة كلها, وهي التي تفسد الحياة كلها.

وهذه هي الفلسفة التي تقبع على ظهر حركات (الفن) و(الروحانية)[14] التي ظهرت في العصر الحاضر.

إن دعاة هذه الفلسفة يدعون أنه يمكن إحياء الوجود الإنساني بأكمله بإحياء الروح وإثارتها. فالنغمات الموسيقية تسحر الآذان, ورؤية المنظر الخلاب على مسرح الرقص تنقل الإنسان إلى عالم آخر .. فهذه الأشياء ترفع الإنسان, لبعض الوقت, عن عالم العلائق المادية إلى مقام وجداني حيث الحب والاتحاد والطهارة النفسية والقلبية, إلى حيث لا حقد ولا كراهية. وبذلك يوجد ذلك الإنسان الذي يتبع أحسن السبل في أنشطته اليومية, ولا يلتفت إلى الأساليب الحقيرة الوضيعة في معاملاته.

[14] Spirituaeism.

هذا هو الادعاء الذي تعلنه الروحانية الجديدة. إن رافعي راية الروحانية الجديدة يقولون: إن الروحانية هي أن نقطع صلة الشعور بالعالم المادي ونركزها على العالم الباطني. إنهم يقولون أن هناك دنيا واسعة داخل الوجود الإنساني, كالدنيا الواسعة خارج وجوده. وهذه الدنيا الداخلية هي روح الإنسان. والروح بحر من نوع خاص. فلو أننا أغمضنا أعيننا وركزنا تفكيرنا على عالمنا الداخلي فسوف نشعر بكون عظيم داخل أنفسنا, وهو كون عظيم الاتساع وغاية في الهدوء. إن الإمعان في هذا الكون الداخلي يبعد الإنسان عن ضجيج الحياة المادية, أو على الأقل يقلل من أهمية هذه القضايا التي تحاصر حياة الإنسان في كل حين. فإنك لو جعلت الناس يغطسون في بحر الروحانية فإنهم لن يلتفتوا إلى ضجيج الساحل, وإن نزلوا فإنهم سيكونون مبتلين بمياه المحيط الروحاني: الأمر الذي سيكون ضمانا في حد ذاته بأنهم سوف يأدون واجباتهم على نحو أفضل من الآخرين الذين لم يتمتعوا بتلك التجربة.

إنني أتفق اتفاقا مبدئيا مع تحليل مفكري وجهة النظر الأخيرة – الروحانية – وهو أن (أصل المجموعة الإنسانية هو الروح أو العقل). أما الحل الذي يتقدمون به فلا يعدو أن يكون كلمات عابثة, لا أكثر. فالقضية الأساسية هي أن الشيء الذي نسميه روحا, ليس مطلقا أو مجردا, بل هو وجود يتمتع بالشعور .. وحيث أن الروح تتمتع بالشعور, فيجب أن تكون الاستجابة لنداء الروح بالأسلوب الشعوري وحده. إن سحر الفنون الجميلة أو الغطس في المحيط الروحاني يمكن أن يخلق شعورا أو كيفية مؤقتة في نفس الإنسان ولكن هذا الشعور وتلك الكيفية لن يستوعبا الوجود الإنساني كله ولذلك لا يلبثان أن يزولا. إن وجودا شعوريا لا يمكنه أن يجد سكينته في أشكال الكيفيات المجهولة ومعمياتها. إن روح الإنسان في حاجة إلى نقطة معلومة معينة تعيينا واضحا, حتى تجعل منها مركز أمانيها وأحلامها, والتي يمكنها أن تصبح هدف مسيرة الإنسان, والتي يمكنها أن تجيب على الأسئلة لو أثيرت, والتي تكون إكمالا لمطالب الوجود الإنساني. إن العثور على نقطة لها هذه الصفات هو عثور الروح على حياتها. وبدون تلك النقطة ستظل الروح بدون ملجأ, تدور في حلقة مفرغة.

وبهذا قد وصلنا إلى حيث تبدأ الحركة الإيمانية.

إن الحركة الإيمانية – باختصار – محاولة بالمفهوم النفسي, لتعيين المركز في روح الإنسان. وهذه المحاولة تستند على التحليل الذي قدمه النبي العربي (ﷺ) : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا

فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[15].

إن الحركة الإيمانية تركز جهدها على إصلاح هذا العنصر الأساسي من الإنسان فإنك لو تمكنت من إصلاح القلب, فكأنك قد وضعت يدك على لوحة المحولات في مصنع الإنسان. وإن أخفقت في وضع اليد عليه فقد فشلت في الحصول على أي شيء رغم سيطرتك الظاهرة على كل شيء.

إن هذه النظرية تحمل أهمية مزدوجة. فالنظريات الأخرى هي لمحض (الإصلاح الإنساني), أي أننا إذا أردنا إصلاح الحياة فينبغي أن نأخذ بتلك النظريات كتدبير للإصلاح.

ولكن ليس هذا كل ما يعنيه الإسلام, بل هو حقيقة في ذاته. وبعبارة أخرى: ليست أهمية الإسلام نفعية وإفادية, بل أهميته تكمن في كونه نظرية أيديولوجية كاملة. فنحن لا نقبل الإسلام لمجرد الإصلاح, بل لإنه لا مفر من ذلك القبول. إن الإسلام يتعلق بحياتنا الأبدية, بالجنة والجحيم, بغضب الخالق ورضاه يوم الحساب. إن هذه الميزة الثانية تضفي أقصى قدر من الشدة والتأثير على النظرية الإيمانية.

وبالإضافة إلى ذلك, فإن مركز هذه الروحانية ليس خياليا, بل هو في حقيقته وجود ذو شعور يتمتع بكامل القدرة, ألا وهو الله, الذي أرسل إلينا, بكامل قدرته وإرادته, كتابا هاديا موثقا. إن هذا الواقع يخرج مسيرتنا الروحانية من متاهات الغموض إلى عالم واقعي حقيقي. إنه يضفي على كيفياتنا الغامضة ثوب القانونية والدستورية. إننا ندرك في هذه المسيرة إدراكا شعوريا كل طرق البداية والنهاية وجميع حدودها وأبعادها. إن الإسلام هو الاسم الآخر لهذه المسيرة الروحانية. فالإسلام لا يكتفي بتعيين الهدف النهائي, بل يتقدم لتوضيح العلاقة الصحيحة بين الوجود الروحاني للإنسان وبين بقية علاقاته. فكما أن دستور بلد ما يكون أحسن تعبير عن أماني شعبه أو حكومته, فكذلك يعين الإسلام مطالب الإنسان الفطرية في صورة القانون. إن الإسلام حكم الله من ناحية, وهو صوت الفطرة من ناحية أخرى.
إن الحركة الإيمانية تركز نشاطها على إبانة هذه الحقيقة الأساسية. إنها توقظ الفطرات النائمة, تربط روح الإنسان

---
[15] رواه مسلم في باب المساقاة : 5 – 50 , 51.

بربه, تحرك ذلك المحرك المركزي الذي تتحرك بتحركه جميع الآلات في مواضعها المحددة. إنها تخلق في الإنسان الشعور بالحق, والإحساس بالهدف, وتضيء في قلبه ضوء المعرفة, إنها توقظ في الإنسان ذلك المحرك العظيم الذي يدفع الإنسان بشدة نحو محاولة تكميل ذاته, حتى يصبح هو نفسه حارس ذاته. وحتى يسيطر عليه الهم لإصلاح نفسه إصلاحا جذريا.

وحيث أن هذه الرسالة هامة جدا إلى أقصى درجات الأهمية, فيظهر السؤال الهام: ما علاقة هذه الحقيقة الأساسية بالعلائق والمطالب الأخرى للحياة. إن البحث عن هذه العلاقة أمر في غاية الأهمية, لأسباب عديدة .. فنحن نريد أن يكون أمامنا التحليل والتفسير العلمي للإنسانية كلها, لكي نحدد أسلوب معالجتنا لشئون دنيوية كثيرة, ولكي لا نقع في أخطاء الحذف والإضافة الإفراط والتفريط, ولكي يتمتع الدين –ككل جامع– بدلالة واضحة في أذهاننا .. إلخ.

فعلى سبيل المثال, لقد ظهرت أفكار ونظريات كثيرة في العصور الأخيرة, تتحدى صلاحية الإسلام, باسم العلم والفلسفة الجديدة. إنها تدعي أن تصورات الله والدين محض خديعة, ولا حقيقة وراءها. إن هذا التحدي ليس بصراخ المجنون, بل يوجد على ظهره فكر خطير أثر في الفكر المعاصر تأثيرا جعل جميع العلوم الحديثة تتأثر به بدرجات متفاوتة.

فما العمل الآن؟ هل نستمر في عملنا الأساسي؟ هل وقائع العالم الخارجي لا تقيم في وجهنا مشكلات تجعلنا نفكر في أسلوب مواجهتها. وإذا كنا في حاجة إلى ذلك, فأين مكانه في هذا الفكر الآنف الذكر؟

إن الواجب العام والدائم على عاتق المؤمنين هو إحياء الحقيقة الأساسية في هيكل الدين. ولكن مع هذا, فإن الأحوال والظروف تخلق دائما في كل العصور بعض المشكلات التي لا بد من مواجهتها.

ويجب حينئذ القيام بواجب المواجهة, في أكمل صور الأداء, رغم أنه ذو قيمة وقتية.

وهناك سؤال آخر, وهو: ما الرابط بين مقتضيات الدين بالنسبة للفرد, وبين مقتضيات الدين بالنسبة إلى الجماعة؟ وبكلمة أخرى كيف تأتي الثورة الاجتماعية إلى حيز الوجود. هل جهودنا لإحياء الحقيقة الأساسية تكفي سببا لتفجر هذه الثورة؟ أم أنه يجب تخطيط برنامج آخر لأجلها؟

إن ردي على هذا السؤال, باختصار, هو أن الثورة في حقيقتها اسم آخر لحسن استغلال إمكان ما بنجاح. إننا نستحق نصرة الله بسبب كفاحنا العام لأجل الدين. ونصرة الله هي التي تفتح لنا السبل داخل أحلك الأحوال القاسية, وباستغلال هذه السبل ينتهي أهل الإيمان إلى الهدف: الثورة الاجتماعية المطلوبة. أي أننا لسنا في حاجة إلى تخطيط برنامج على حدة لتفجير هذه الثورة بل هي منحة من الله وتكليل لجهودنا في سبيل الدين.

وهناك أسئلة أخرى كثيرة تستحق منا التأمل والدراسة, ومحاولة توفير إجابة نظرية لها.

والآن أقول بعض الكلمات عن أسلوب عملنا:

إن هذه الحركة الإيمانية تعمل بين الجماهير عن طريق منهجين:

أولا: المخاطبة بالأسلوب النفسي بدلا من الأساليب العلمية والمنطقية.

ثانيا: الاهتمام باللسان, دون القلم, في نشرها. فما المراد من المخاطبة بالأسلوب النفسي, ولنفهم ذلك من مثال .. يقوم أحد الدعاة, وبهذه الكلمات يخاطب الجمهور:

(أيها الإخوة**!** إن كل ما أريد أن أقوله لكم في كلمة واحدة هو أنكم أمل الله وأنكم سوف تحققون أمل الله**!**).

(إن ثمرة المانجو عندما تتدلى من غصن شجرتها, فإنها تكون أمل الله في إسعاد العالم بالطعم الحلو, والوردة تأتي إلى العالم بأمل الله في أن يستمتع الناس برائحتها الجميلة. إن الطائر الجميل يكون أمل الله في أن يبعث السرور لدى سامعي زقزقته. وهكذا, أنتم أيضا أمل الله. لقد عقد خالقكم بكم الأمل: وهو أن تصبحوا مندوبي دينه, تنشرونه في كل ركن من أركان المعمورة, حتى لا يحرم أحد من الهداية**!**).

والظاهر أنه لا شيء في هذا الخطاب مما يمكن أن ينطبق عليه وصف الاستدلال العلمي. ولكن المتحدث عندما يسكب هذه الكلمات من أعماق قلبه فإنه يجعل قلوب سامعيه تضطرب. ولا شك في أن للاستدلال العلمي والإثبات المنطقي وزنهما ولكن الكلمات النفسية التي تهز كيان الإنسان تصل إلى حيث لا يصل العلم والمنطق. إنها تقلب القلوب وتسخر الشخصيات, وتغير الوجود الإنساني كله.



نحو بعث إسلامي

المسلمون مغلوبون على أمرهم, في كل مكان, وهم ضحايا الاستغلال في كل بلد.
ما الذي انتهى بالمسلمين إلى هذه الحالة المؤلمة؟ وهم الذين يملكون ألمع ماضي حضاري, ويشكلون الآن ثاني أغلبية دينية في العالم.

إن ألسنتنا مشغولة بتوجيه التهم إلى الآخرين.
فالمسلمون الهنود يلعنون الأغلبية الهندوسية, والعالم العربي يكيل اللعنات لليهود, والمسلمون الأفارقة يوجهون التهم إلى المسيحيين.
ولكن السؤال الملح هنا: لم حدث هذا؟ لقد حكم المسلمون العالم أكثر من ألف سنة, فكيف وصل بهم الأمر إلى هذا الهوان الذي يعيشونه في عالم اليوم؟ إن الحقيقة الكبرى في كارثتنا هي أن ضعف المسلمين هو المسئول عن فشلهم وسقوطهم.
إن هذا العالم عالم صراع ومواجهة, ولا معنى للتباكي على الفشل, حيث يوجد الصراع والمواجهة. فالفشل هنا هو النتيجة الحتمية لمن يثبت ضعفه في الصراع, ففي بداية النبوة أصبح العرب والعجم أعداء الدعوة الجديدة, ولكن الإسلام لم يكن ليسقط لمجرد عداوة هؤلاء.
إن استمرارنا في العويل والبكاء يعني أننا بصدد تضييع الفرصة الأخيرة – أيضا – التي منحتنا إياها طبيعة العصر الحديث. إن توجيهنا الاتهامات للآخرين يكشف عن أننا لسنا نواجه الفشل فحسب, ولكننا نواجه الحماقة وقلة الحكمة في نفس الوقت.
لن يبدل شيئا من بؤسنا وقدرنا إلا شيء واحد, وهو أن نعمل لتقوية أنفسنا. فنحن ضعفاء, بحق, أمام الآخرين, ولذلك نحن مغلوبون.
كيف نصبح أقوياء؟ إن القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال:
(وأعدوا ما استطعتم من قوة, ومن رباط الخيل, ترهبون به عدو الله وعدوكم).
إن القوة هي القوة المرهبة. والأمر الإلهي يشمل كل سلاح يتصف بصفة (الإرهاب) وطريقنا كما تحدده هذه الآية الكريمة, أن نحصل على القوة للرهبة, تلك التي يستعيد بها الإسلام مجده وشوكته في هذا العصر.

إن العصر الجديد هو عصر التغيرات. لقد تغير كل شيء في عالم اليوم, حتى مفهوم القوة نفسه قد تغير فلم تعد

الخيول والسيوف والرماح رمز القوة, بل انتقلت قوة الخيل إلى ما يسمونه بقوة (الحصان). لقد أصبح العلم والتكنولوجيا رمزي القوة والتقدم. وفي الماضي كان رجل واحد يحكم أما الآن فالأمر قد تغير, وتوجد أنماط مختلفة للحكم, تلعب قوى متعددة دورا هاما في توجيهها. وقد كانت الحكومة أكبر قوة فيما مضى, أما الآن فالصناعة والاقتصاد والتجارة هما أكبر قوة في ضوء المقاييس العالمية.

لقد جاء العصر الحديث بقوى الجديدة يمكنها أن تعين شعبا ما, أو طائفة معينة على التحكم, من هذه القوى الضاغطة قوة (الصحافة) التي تمثل قوة عظيمة لم يكن لها وجود, البتة, في العصور الماضية.

إن نكستنا الراهنة ترجع إلى تجاهلنا التغيرات التي طرأت على العصر, وإلى عدم امتلاكنا القوى الجديدة التي تمخضت عن هذه التغيرات وعلى سبيل المثال, فإن جميع حركات النهضة التي قامت على امتداد العالم الإسلامي, خلال المائة سنة الماضية لم تهدف إلا إلى هدف واحد – هو إنهاء السيطرة الاستعمارية الغربية, والحصول على الاستقلال. وقد أنفقنا في سبيل هذه الغاية ما لا يحصى من الوقت والمال والتضحيات. ولقد توصلنا, تقريبا, إلى هذا الهدف اليوم ولكن هل يتمتع المسلمون اليوم بنفس المكانة التي تمناها مجاهدو الحرية في أحلامهم بالأمس؟ ولا جواب لهذا السؤال إلا بالنفي المطلق.

لقد أزاح مسلمو الهند (نير) الاستعمار الانجليزي, بعد تضحيات منقطعة النظير, وإذا بهم محكومون من جانب الأغلبية, في ظل النظام الجمهوري الحر. وفي كثير من البلدان الإفريقية دفع المسلمون ثمن الحرية من دمائهم الساخنة, ولكن غير المسلمين بتفوقهم العلمي والاقتصادي يحكمونهم اليوم وفي صخب شديد ملأ العالم أعلنت بعض البلدان العربية تخلصها من الاستعمار نهائيا, ولكن سرعان ما وقعت هذه البلدان فريسة استعمار من نوع جديد.

وخلاصة ما أريد أن أقوله هو أن واقع الدول الإسلامية لم يتغير, رغم كل التغيرات, فنحن رغم انتزاعنا الحرية لم نتمتع بها في حقيقة الأمر, والغرب – شرقية وغربية – لا يزال يحتوي دولنا الإسلامية, بفضل علمه وصناعته المتفوقة, وهو يفعل ما يريد, لدرجة إبقاء حكوماتها أو تغييرها, إن اقتضت مخططاته ذلك.

وهنا نأتي بمثال من معسكر غير معسكرنا, يكشف خطأ برامجنا.

لقد تحطمت اليابان تحطما كاملا في الحرب العالمية الثانية, ودكت قنابل الحلفاء معالم ناجازاكي وهيروشيما وطوكيو والمدن اليابانية الأخرى, ثم احتلت الجيوش الأمريكية أرض اليابان, وهي لا تزال تحتل جزيرة أوكيناوا, ولا تزال أمريكا هي المسئولة الأساسية عن الدفاع عن اليابان, بناء على المعاهدة التي أبرمت بين الدولتين بعد الحرب.

وبدأت اليابان حياة جديدة بعد الحرب. ولقد كان المزاج الشرقي العادي يقتضي إثارة حملة سياسية ضد الوجود الأمريكي, لأن السياسيين عندنا يقولون: (جلاء الأجنبي المستعمر بداية لكل خير وطني). ولكن اليابان اختارت طريقا آخر: لقد تجاهلت وجود الاحتلال الأمريكي وركزت كل جهدها على بناء الوطن من جديد وزادت من أهمية التعليم حتى أعطت المدرسين مرتبات الوزراء, ومنحتهم صلاحيات وكلاء النيابة, وكانت النتيجة أن أصبحت اليابان, في عقدين اثنين من الزمن, بلدا من أكثر البلاد تقدما في التعليم. واليابان لا توجد فيها مناجم الحديد, ولكن الشعب الذي قد تعلم لم يعد يضيع قطعة واحدة من حديد شفرة حلاقة أو مسمار مكسور. فكل قطعة حديد تأخذ طريقها نحو المصنع لكي تظهر في صورة جديدة نافعة. وسار البناء قدما بطريقة منظمة حتى أصبحت المدن المحطمة من أكبر مراكز الصناعة والتجارة في العالم, وتقدمت الصناعة والعلم والتكنولوجيا حتى أصبحت منتجات اليابان تنافس المصنوعات الأمريكية في أسواق التجارة الحرة.

واستغلت اليابان نكبة الاحتلال الأمريكي أحسن استغلال كمظلة دفاعية ووجهت كل إمكاناتها نحو تعمير الوطن, وكانت النتيجة أن أصبحت اليابان خلال ربع قرن من أكثر بلدان العالم علما وتقدما وقوة في الاقتصاد. وبعد أن تم لها كل هذا بدأت الحوار مع أمريكا. فكانت المطالبة اليابانية تقريرا لحق سبق فيه الحكم لصالح اليابان, لأنها استخدمت في ذلك كل قوة وإمكانية أتاحها الزمن والعصر لها ففوجئ العالم في أكتوبر الماضي بوزير خارجية اليابان يزور (أوكيناوا), لأول مرة, ويعلن أن: (القوات الأمريكية ستجلو قريبا عن أرض اليابان)[16].

إن النموذج الياباني يؤكد معرفة رجالها معرفة كاملة بروح العصر الجديد بينما نموذجنا يخلو تماما من تلك المعرفة بروح العصر. وهذا هو السر في أننا لم نحتل مكاننا المناسب على خريطة العالم. لقد أحرزت اليابان في ربع قرن من الجهاد الذاتي المكانة التي نجهد أنفسنا منذ ما يزيد على قرن في سبيلها دون الوصول إلى نتائج.

---

[16] كتب هذا الاقتراح قبل توزيع اتفاقية أوكيناوا التي نصت على إنهاء الاحتلال الأمريكي للجزيرة وعودتها لليابان (الأهرام في 1971/6/25).

إن نموذج اليابان وظروفها مماثلة لكل الدول التي توجد فيها أغلبية المسلمين فبينما تمكن اليابانيون من النهوض والوقوف فوق أرض صلبة بتسخيرهم لكل إمكاناتهم المتاحة لهم ذاتيا .. ظللنا نحن عجزة متوكئين على عصا غيرنا, ولم تزد بطولتنا عن أننا أصبحنا مجتمعا استهلاكيا لكل ما ينتجه الغرب من آلات وأفكار.

والآن نسوق نموذج اليهود ليكون عبرة للمسلمين الذين يعيشون كأقليات في الدول غير الإسلامية.
إن اليهود يشكلون ثلاثة في المائة – فقط – من تعداد المائتي مليون نسمة في الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الواضح أنهم بهذه النسبة المئوية لا يستطيعون أن يقيموا لهم حكومة في أمريكا. وهم لذلك لم يشكلوا أية أحزاب سياسية – ولكن نفوذهم وتأثيرهم يمسك بعقل أمريكا مثل الكماشة. ولا مبالغة إن قلنا أنه لا توجد أية جوانب في الحياة الأمريكية خارجة عن نفوذ –كلي أو جزئي – لليهود.

ويكمن السبب في نجاح اليهود أنهم قد اكتشفوا سرا هاما, وهو أن العصر الجديد قد أتاح لإنسان العصر إمكانات عديدة تؤثر على جميع جوانب الحياة برغم أنها إمكانات غير سياسية. ولم يكن في استطاعة اليهود السيطرة على الحكومة الأمريكية عن طريق السياسة والانتخابات العامة, ولكن الميدان الآخر الذي أتاحه العصر الحديث كان مفتوحا أمامهم وعن طريقه وحده نجحوا في الحصول على ما لا يمكن أن يحصل عليه إلا حزب سياسي يقدر له أن يسيطر على الحكم.
لقد برع اليهود في التجارة حتى أحكموا اقتصادهم وسيطروا على الصحافة لدرجة ملكيتهم لوكالات صحفية بأكملها ولصحف ومؤسسات نشر كبرى, وهذا على الرغم من سيطرتهم على التليفزيون الأمريكي نفسه. وقد اهتموا –كذلك – أيما اهتمام بتنشئة الأجيال اليهودية الجديدة في كل مجالات التخصص العصري لدرجة أن الأمريكي حين يبحث عن أحسن مدير وأحسن مهندس وأحسن أخصائي وأحسن أستاذ وأحسن عالم وأحسن محام فإنه لا يجد أمامه إلا واحدا من اليهود.
وهكذا سيطر اليهود بكفاءتهم وجهدهم المثابر في جميع مجالات الحياة على جميع وجوه النشاط والتأثير ..

إن اليهود الذين لا يتعدون نسبة ثلاثة في المائة من سكان أمريكا يملكون ثلاثين في المائة من الاقتصاد الأمريكي, بل يملكون بعض الأشياء بنسبة مائة في المائة, وهم يحاولون جهدهم أن يكثروا من تعدادهم, حتى إنهم ينجحون

في جذب نحو ثلاثة آلاف أمريكي إلى دينهم كل سنة .. بسبب التبشير الذي يعتبر ظاهرة جديدة – في ذاته – عند اليهود الذين عرفوا, على مدار التاريخ, بالانغلاق.

لقد تخلف المسلمون في كل مكان لأنهم أخطأوا في تفهم طبيعة العصر, ولم يهيئوا أنفسهم مطلقا لما تتطلبه روح العصر الجديدة هذه من انفساح .. ومنذ قرن كامل وثمة ضجة تثار في أرجاء العالم الإسلامي حول ما يسمونه إحياء الإسلام, لكن الصخب الشديد قد انتهى بنا إلى حيث نحن الآن ملقون في غار الذل والعار, ومما يزيد من عمق تعاستنا أن كل هذا الفشل لم يؤد إلى خلق شعور لدى المسلمين وإعادة الفكر فيما يجب عمله وفي الأسلوب الذي يجب اتباعه. وكل الشعارات والنعارات التي ثبت فشلها النهائي – بحكم شهادة التاريخ – لا زلنا نسمعها من حين لآخر في كلمة جديدة أو ثوب جديد.

وفي الهند (على سبيل المثال) لا يعرف الزعماء السطحيون إلا السعي لإحياء ما يسمى (بالسياسة الإسلامية) تلك التي أخفقت من قبل في صورة (الرابطة الإسلامية) وبرغم أن اللعب بمثل هذه الشعارات (في مثل عصرنا) لا يعدو أن يكون نوعا من الانتحار الأحمق.

وفي البلاد الإسلامية المستقلة توجد آلاف الأعمال التي يعتبر النهوض بها هو الرقي بالشعب والارتفاع إلى مستوى القوة العصرية المطلوبة, ولكن حال هذه الأعمال يرثى له فإن جيوش هذه البلاد مشغولة بفتح بلدانها هي, وما يمضي يوم إلا ونسمع في هذه البلاد عن محاولة جرت من جانب الجيش للاستيلاء على السلطة وتنتهي المحاولة (سلبا أو إيجابا) بإراقة دماء مئات من الشخصيات التي كان يجب ادخارها لتعمير الأمة وبناء الوطن.

وهناك إمكانات مدهشة لنشر الدعوة الإسلامية وتوسيع رقعة العالم الإسلامي, وباستغلال هذه الإمكانات, الجديدة من نوعها في التاريخ يمكننا دفع عجلة الإسلام إلى الأمام في نجاح لا يمكن تخيل أبعاده الآن, لكن هذا الميدان الحساس للعمل الإسلاميلا يزال غير مطروق على الإطلاق.

وهذه الإمكانات التي سلف ذكرها تقتضي إحياء كفاح جديد في عالم الإسلام لنعطي لأجيالنا الجديدة الشعور الحقيقي بمعنى وجودهم: من هم؟ وفي أي عصر يعيشون؟ وماذا يجب أن يفعلوا حتى يحتلوا مكانتهم اللائقة بهم في عالم اليوم؟

إن أهم سؤال يجب أن نطرحه فيما يتعلق ببدء هذا الكفاح هو: في أي مكان نبدأ بهذا العمل. ولو تمكنا من تحديد المكان الأنسب لهذا العمل فإننا نستطيع الحصول على أروع النتائج في مدة قليلة, وعلى عكس ذلك لو

بدأ هذا العمل في مكان غير مناسب فلا جدوى منه ولو بعد مضي مائة عام.

عندما بدأت اليابان إحياء مجدها توجهت إلى المدرسين في المدن وأعطتهم مرتبات الوزراء وصلاحيات وكلاء النيابة, وعندما أرادت الأقلية اليهودية خلق مكان لها في الولايات المتحدة الأمريكية فتحت مراكز التوعية للأطفال اليهود التي علمتهم كيف يتلافون نقصهم العددي عن طريق المثابرة والامتياز في العلم والعمل. ولكن حينما أصابنا داء الانحطاط في القرون الماضية بدأنا كفاحنا بإثارة العويل السياسي ضد الملوك والمستعمرين الأجانب. والنتائج تقول لنا أن ما جنيناه في قرن كامل لا يساوي شيئا بالنسبة لما جناه اليابانيون في ربع قرن. والآن يقف اليابانيون واليهود الذين كانوا ضحايا الأمس موقف المتحدي لقوى العصر, وليس ثمة من يمكنه منعهم من هذا التحدي.

إننا لن نكرر الآن خطأ الماضي بأن نبدأ في بناء المنزل من أدواره العليا, لأننا لن نجني من وراء ذلك البناء, القائم بدون أساس, إلا ضياع الجهد والوقت.

إننا هذه المرة سنبدأ في بناء الأساس قبل كل شيء لأن هذه البداية التعميرية هي وحدها التي تنتهي بتشييد منزل منيع حصين.

* * *

وفي حالتنا الراهنة نرى أنه ينبغي بدء إحياء الإسلام في أحسن صوره العملية بأن نقيم مركزا إسلاميا على نطاق عظيم. ويكون هذا المركز الإسلامي مجهزا بجميع الوسائل العصرية لنشر الأفكار حتى يصبح هذا المركز مصدر الطاقة المفجرة للدعوة الإسلامية العالمية بحيث يكون هذا المركز إسلاميا وعالميا وعصريا في نفس الوقت.

وسوف يقام هذا المركز بحيث يسوده جو إسلامي خالص, وهذا يعني أن يضم مسجدا ومكاتب وغرفا للباحثين.

ونوجز فيما يلي الأعمال التي سيعنى بها المركز:

1- إصدار مجلات عربية وأردية وهندية وإنجليزية, وغيرها وهي مجلات لن تعنى بالأخبار, وإنما ستكون مجلات الفكر التي ستربط جهودنا المختلفة لتعريف أجيالنا بروح العصر ومتطلباته حتى نستطيع عن طريقها نشر الوعي للقيام بعمل جاد لبناء الأمة. وهذه المجلات المقترحة يمكن رؤية مثال لها في مجلتنا (الجمعية الأسبوعية).

2- نشر الكتب الإسلامية الأساسية إلى اللغات الأجنبية.

وعلى سبيل المثال فإننا نريد نشر طبعة للقرآن الكريم تجمع بين الترجمة والتفسير, حتى يتمكن الرجل العادي من استيعابه بيسر وتسلسل. ونريد نشر هذه الطبعة الميسرة في كل لغات العالم مثل طبعات الإنجيل المنتشرة في كل مكان بثمن رمزي.

وكذلك نريد نشر ترجمة للأحاديث النبوية على هذا النحو ونريد أيضا نشر كتاب في السيرة النبوية, يكون بمثابة كتاب هاد للمثقف العادي, خصوصا من غير المسلمين.

3- نشر كتب تتناول قضايا العصر من وجهة النظر الإسلامية وتعالج مبادئ الإسلام بعقلية غير مبهورة بالغرب. وهذا النوع من الكتب يمكن رؤية نموذج له في كتابنا (الإسلام يتحدى). ومن الواجب أن نتوسع في تقديم أعمال من هذا الطراز على أوسع نطاق وفي كل لغات العالم.

4- إعداد جيل إسلامي مثقف وعلى علم بكل اللغات القديمة والحديثة وبالحضارات والأديان, وتدريبه على البحث حتى يمكنه نشر الدعوة الإسلامية في مختلف البيئات, وفي إمكانه في هذه الأثناء الحصول على درجات جامعية عليا في مختلف فروع المعرفة.

5- وسيضم المركز لذلك غرفا للباحثين والطلبة المسلمين الذين يتمتعون بقدر من الامتياز والذين يختارهم المركز لتنشئتهم نشأة إسلامية صحيحة.

6- تبادل زيارات المفكرين والكتاب الإسلاميين بين مختلف البلدان لا سيما بين بلدان العالم الإسلامي لتهيئة مناخ إسلامي عالمي يساعد على تنشيط العقول الإسلامية الهامدة.

7- ستنشأ داخل هذا المركز بيئة إسلامية تكون فرصة لغير المسلمين كي يشاهدوا الحياة الإسلامية في صورتها الحية الطبيعية.

8- سيعد في هذا المركز معرض يضم لوحات ورسومات عن التاريخ والحضارة الإسلامية في مختلف المراحل .. وكذلك سيضم المعرض آثارا إسلامية, ويكون من شأن هذا المعرض إعداد وعرض أفلام عن الإسلام.

9- ينهج المركز نهجا يؤدي إلى توعية المسلمين وإيقاظهم من سباتهم المميت, تمهيدا لانطلاقهم في ميدان التعليم والاقتصاد اللذين يعتبران بحق مفتاح العصر الحديث.

وسيكون من شأن هذا القسم إنشاء صندوق لتعليم الممتازين من الطلاب المسلمين, وكذلك إنشاء وكالة أنباء إسلامية دولية يكون عملها ربط جهود المسلمين عبر القارات, وإرشادهم في نواحي الاقتصاد بصفة خاصة, ولإثارة مشاكلهم وقضاياهم وأخبارهم بصفة دائمة.

10- إنشاء مكتبة وقاعة درس ومحاضرات داخل المركز, ويكون من شأن هذا القسم التسهيل على طالبي البحث, والإمداد بالمعلومات عن الشئون الإسلامية, ودعوة مفكري العالم الإسلامي وغيرهم لإلقاء المحاضرات والندوات الثقافية.

* * *

إنه لمن الواضح أن اقتراح (المركز الإسلامي الدولي) سيبدو للكثيرين حلما وخيالا لأنه لا يمكن إنشاؤه على النحو المطلوب إلا بوسائل اقتصادية ضخمة, ونحن نعلم جيدا مدى اهتمام أمتنا بالمشروعات الإسلامية الجادة.

ولكن على الرغم من كل الظلام الحالك فإن هناك بصيص نور, هو أنني مقتنع من الوجهتين الشرعية والعقلية بأنه لا شيء يجدي لإحياء الإسلام – في الظروف المتاحة الآن – ولإعطاء المسلمين دورهم المناسب – إلا بدء مشروع فكري من هذا النوع.

وإني لا أشك في أن عناية الله تعالى تستطيع أن تفتح قلوب بعض المسلمين حتى تتاح الفرصة والوسائل اللازمة لبدء هذا العمل الهام الذي لا بد منه. وما ذلك على الله بعزيز.

لقد أتاح الله وسائل عظيمة للدول الإسلامية التي تمثل جزءا هاما من جغرافية العالم وتمتلك قدرا عظيما من الطاقة البشرية, وتجود أراضيها بالذهب السيال, وهي مع كل ذلك وارثة تاريخ وحضارة مجيدين يقومان على الدوام بإعطاء الحرارة لأجيالها الجديدة, ولكنها أصبحت اليوم بدون مكانة على خريطة الأرض لأن الإمكانات التي أتيحت لها لم تستغل كما يجب حتى يجعل منها واقعا يفرض وجوده.

فالمسلمون في مؤخرة شعوب العالم في التعليم والاقتصاد, وحالتهم في الصحافة يرثى لها لأنهم مضطرون لاستقاء الأنباء نفس الوكالة الصحفية التي يديرها أعداؤهم. وأسواقهم تغمرها سلع أنتجتها مصانع الأعداء, وتحكم الأعداء فيهم قوي جدا لدرجة أنهم لو امتنعوا عن إعطائنا الأسلحة لتحولت الجيوش المسلمة إلى جيوش بلا سلاح, ذلك أن دولنا الإسلامية تستهلك الأسلحة ولكنها لا تنتجها. والمسلمون دينهم دين التبليغ والدعوة, ولكن الأديان الأخرى وحدها هي التي تهيء لمبشريها الطائرات حتى ينشروها بسرعة العصر, ومجرد التفكير في أن يمتلك دعاة الإسلام الطائرات نوع من الخرافة.

والعجيب أن الآخرين يرتادون القمر, بينما نحن لم نجهز لنا مكانا مناسبا على الأرض بعد ..

كان الحاكم الانجليزي للهند (اللورد كيرزون) سكرتيرا عاما لعصبة الأمم في يوم من الأيام. وكان (عصمت اينونو) يمثل تركيا لدى عصبة الأمم حينئذ. وذات مرة ذهب اينونو لمقابلة اللورد كيرزون. وترك اللورد المندوب التركي

ينتظر في استراحة مكتبه دون أن يستقبله لمدة خمس عشرة دقيقة, وعند اللقاء مد اللورد يده ليصافح عصمت اينونو الذي رفض أن يصافحه, ولم يجلس على الكرسي الذي أشار إليه اللورد بالجلوس عليه, وإنما قال للاستعماري الانجليزي:

(عندما كان أجدادك يتخذون من قشر الأشجار وجلود الحيوانات لباسا لهم, كان أجدادي يؤلفون كتبا في الفلسفة والعلم)!

حقا, ما أنصع ما نملكه من تاريخ وحضارة وتراث عريق. وهذا التراث ينادينا اليوم. ولو استطعنا أن نستجيب لندائه لأصبح حالنا اليوم مثل ماضينا المضيء.

والتاريخ مستعد لإعادة صفحاته – بشرط واحد وهو أن تكون مستعدين اليوم لإعادة ما سجله تاريخنا المجيد بالأمس ..

والله الهادي إلى سواء السبيل ..

مطابع المختار الإسلامي

دار السلام